المحاضرة الاولى

مقدمة في عوامل ضعف وسقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الامبراطورية الرومانية – أو غسطس يرسي امس الامبراطورية

اعتاد المؤرخون اعتبار حكم اوغسطس (٣١ ق.م ، ١٤ ب.م) نهاية العهد الجمهوري وبداية للعهد الامبراطوري في روما. والواقع ان اوغسطس نجح في إيجاد طراز من الحكم كان مزيجا من الملكية والجمهورية فقد احتفظت الدولة بمظهرها الجمهوري وذلك بالابقاء على سلطة مجلس الشيوخ ((السينات)) أو ((السانتو)) وفي الوقت نفسه تمتع اوغسطس بسلطات واسعة ، فهو القائد الأعلى للجيش الروماني، وهو المهيمن على شؤون الدول المهمة من ذلك صلاحيته في نقض أي من قرارات مجلس الشيوخ، وقدرته في التحكم في مجلس الشيوخ نفسه. يضاف إلى ذلك انه كان لاوغسطس الحق في تعيين جميع حكام الأقاليم الرومانية. وكان هؤلاء مسؤولون امامه مباشرة. واحتفظ مجلس الشيوخ بقسط من السلطة في إدارة الاقاليم الرومانية الداخلية البعيدة من الحدود اما تلك الأقاليم المتاخمة للحدود، فقد حصر حق ادارته بأغسطس مباشرة وذلك لاهميتها من الناحية العسكرية.

وتماشياً مع هذا الاتجاه الهادف إلى تقوية سلطانه الشخصي ، حاول أو غسطس بعث روح جديدة في الديانة الرومانية القديمة، تلك الديانة التي اضفت على حكام روما نوعا من الألوهية والقدسية. وفي الواقع، لم يكن الطموح الشخصي المجرد ، وحده، هو الدافع وراء قبول أوغسطس قرار مجلس الشيوخ برفعه إلى مصاف الالهة ومن المرجح ان يكون أوغسطس نفسه قد حث الشاعر الروماني فرجل على نظمه رائعته الشعرية في اطراء اوغسطس وفي الاشادة بانجازات عائلته.

وكان الهدف الشخصي اضفاء الهيبة والقداسة على منصب الامبراطور الخلاصة نجح أوغسطس في ارساء قواعد راسخة للامبراطورية الرومانية ، ولعل نجاحه هذا يفسر استمرار الأمبراطورية اربعة قرون من بعده ، على الرغم من الصعوبات الهائلة والمشكلات المعقدة التي واجهتها الامبراطورية. لقد حافظت الأمبراطورية الرومانية على نوع من التماسك واحتفظت بقدر من القوة خلال تلك القرون الأربعة، بفضل جيشها الدائم الكثير العدد والحسن التدريب والتسلح ، وبفضل جهازها الاداري ، وجودة وسائل مواصلاتها وصلاحية طرقها.

لكن الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي، لم تكن نفس تلك الامبراطورية التي خلقها اوغسطس عام ١٤ للميلاد. لقد شهدت الامبراطورية تطورات مهمة خلال القرون الثلاثة الأخيرة من حياتها ، فعمت فيها الفوضى وتدهورت اوضاعها الاقتصادية، وفقدت الامبراطورية الكثير من القاليمها المهمة مثل اسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا . وكان الشطر الغربي من الامبراطورية اوفر نصيباً من تلك الفوضى السياسية وذلك التدهور الاقتصادي. والواقع ان اقاليم الامبراطورية في الشرق احتفظت بكثير من الازدهار والرفاه.

اما انتشار المسيحية في أجزاء الامبراطورية الرومانية فيمثل هو الآخر مظهراً من المظاهر المهمة التي تميز تاريخ الامبراطورية خلال القرون الثلاثة الأخيرة. وقد نجحت الكنيسة المسيحية في نهاية الأمر في ان تحل محل الامبراطورية الرومانية في قيامها بالمحافظة على وحدة الحضارة في أوربا خاصة بعد أن وفقت في نشر عقيدتها بين القبائل الجرمانية. وكان هذا بحد ذاته عاملا مهما ساعد هذه القبائل على تفهم تلك الحضارة وتقبلها.

عوامل ضعف وسقوط الامبراطورية الرومانية:

شهد القرن الثالث الميلادي نهاية النظام الذى اقامه الامبراطور اوغسطس بالفوضى وعدم الاستقرار السياسي فسحا المجال للدكتاتورية، وتعاقب الدكتاتوريات العسكرية أدت في آخر الأمر إلى الغاء نظام اوغسطس ذي المظهر الجمهوري برمته والى احلال نظام استبدادي على غرار الانظمة الشرقية محله. وتم هذا على يد

الامبراطور دقلديانوس.

وضعف روما وسقوطها من الأمور التي اثارت اهتمام الباحثين في كل العصور ووضعت لذلك تفسيرات كثيرة ومتباينة، فبينما أكد البعض على العامل السياسي وحملة مسؤولية السقوط ، ابرز فريق آخر دور العوامل الاخرى اقتصادية واجتماعية واخلاقية ، ولعله من الصواب القول أن سقوط روما لا يعزى الى عامل واحد، بل الى عوامل كثيرة تظافرت وعملت على اضعافها وعلى اسقاط امبراطوريتها العتيدة.

دور العوامل السياسية والعسكرية :

كانت مشكلة وراثة العرش الروماني من العوامل الرئيسة التي سببت الكثير من المرضى السياسية وادت الى عدم الاستقرار في انحاء الامبراطورية الرومانية فلم خلال تاريخ الامبراطورية الطويل نظام ثابت لوراثة العرش ، فكان الصراع بين المتنافسين على العرش يتكرر بعد وفاة كل امبراطور يتكرر بعد وفاة كل امبراطور.

ولم تكن هذه المشكلة جديدة بالنسبة إلى الامبراطورية ، بل هي من اهم ما تميز به تاريخها. والشيء الجديد في الأمر هو ان الفوضى التي كانت ترافق عادة الامبراطور الجديد، لم تعد تقتصر على روما ، بل تعدتها الى اقاليم الامبراطورية الأخرى، اضف الى هذا أن الجيش اخذ في التدخل أكثر فاكثر في الشؤون السياسية ، بل وحتى في اختيار الامبراطور. وقد أدى هذا التدخل الى سلسلة من الحروب الداخلية التي سببت بدورها تدمير الممتلكات ونهب المدن وخراب الريف، والحاق هذا كله الضرر البليغ بالانتاجين الزراعي والصناعي وبالحياة العامة.

وفي الوقت الذي ازداد فيه تورط الجيش في الشؤون السياسية فان تغيرا جوهريا طرأ على تركيبه فالجيش الروماني كان يتألف من المواطنين الرومان وكان في الواقع مدرسة يتعلم الفرد واجبات المواطنة الرومانية. وكان يقوده ضباط رومانيون جاءوا من اقاليم ذات صبغة رومانية اصيلة. ويقضي الضابط أو الجندي ما يقرب من العشرين عاما في الخدمة العسكرية يتقاعد بعدها ، فيمنح راتبا تقاعديا ملائما او قطعة من الأرض مناسبة . وهكذا يعود الى الحياة المدنية ، كمواطن صالح ليساهم في الحياة العامة. ولهذا صار الجيش الروماني بالنسبة للفرد وسيلة لتحقيق النجاح الاقتصادي والاجتماعي . واجتذب اليه خيرة المواطنين الرومان . ودأب الشباب تهيئة انفسهم للخدمة العسكرية ، في حين تمتع المحاربون القدماء بالعز والاحترام ولكن الجيش الروماني منذ اوائل القرن الثاني لم يعد بهذا الشكل فلم يكن العنصر الروماني هو العنصر الوحيد الذي يتألف منه الجيش ، بل دخلته عناصر اخرى غير رومانية ، اما العناصر الرومانية التي كانت لاتزال فيه فقد جاءت من اقاليم رومانية نائية ومن مناطق ريفية بشكل خاص وكان تأثرها بالمدنية الرومانية محدودا وتفهمها للمثل الرومانية و للنظام السياسي الروماني ضئيلا جدا .

فالسلم والرفاه اللذان سادا الامبراطورية الرومانية في القرن الأول للميلاد جعلا سكان المدن الرومانية يفضلون حياة الاستقرار والرغد على الحياة العسكرية المضنية والمحفوفة بالمخاطر. هذا من جهة، ومن جهة اخرى لم تعد الخدمة العسكرية تتعدى حراسة الحدود، ولم يعد فيها ما يشبع روح المغامرة والحرب ، ولهذا انصرف الكثيرون من الرومان عن الخدمة في الجيش ، التي اصبحت مملة رتيبة.

وجوبهت الحكومة الرومانية بهذا العزوف عن الخدمة العسكرية فاضطرت الى قبول انخراط من يود الانخراط فيه دون تمييز . وفقد الجيش الروماني تدريجيا صلته بالسكان الأكثر اصطباغا بالصبغة الرومانية ، وصار رجاله يمثلون فئة منفصلة . تتحكم فيها النزعة الاقليمية أكثر مما تتحكم فيها روح المواطنة الرومانية . ولم ينصرم القرن الثاني حتى صار الجيش الروماني يتألف كله تقريبا من عناصر ريفية : رومانية، وغير رومانية . لم تمسها الحضارة الا قليلا . واصبح ولاء الجندي لا يتعدى حدود كتيبته وضباطه.

حدث كل هذا في الوقت الذي ازدادت فيه اهمية الجيش نتيجة للصراع الداخلي والحروب الأهلية من ناحية ، وازدياد الأخطار الخارجية التي كانت تواجهها الامبراطورية من ناحية اخرى.

وشعر الاباطرة بأهمية الجيش بالنسبة لهم، فحاولوا استمالة رجاله بكل السبل وقد سار اغلبهم على المبدأ القائل (اجزل العطاء للجيش ولا تعبأ بالآخرين).

وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية تفقد صبغتها الدستورية القائمة على السلطة الثنائية – سلطة الامبراطور وسلطة مجلس الشيوخ . السانتو . ولما كان الأباطرة يعتمدون على الجيش وحده الابقاء على سلطانهم ، فقد دفعهم هذا الى ارضاء الحيش من ناحية، وشجعهم على التجاوز عل القوانين الرومانية وحقوق المواطنين الرومانيين من ناحية اخرى، والاستخفاف بالمؤسسات الدستورية من ناحية ثالثة.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث تحكم الجيش تحكما مطلقا في توليه الاباطرة وخلعهم . بل انه قام في كثير من الاحيان برفع رجاله الى المنصب الامبراطوري وكان فريق من هؤلاء رجالا طيبين وجنودا شجعان ، ولكنهم كانوا جميعا ضباطا صغارا من اصول ريفية ، وذوى تعليم محدود ، جاءوا من ثكناتهم ليتولوا مهام خطيرة تنوء بها كواهل اعظم السياسيين.

ويعتبر بعض المؤرخين ما حدث في الجيش ثورة اجتماعية ثأر فيها الريف الروماني والعناصر غير الرومانية ، عن طريق الجيش ، من البرجوازية وسكان المدن الرومانية المترفين والمتحضرين.

تعرضت الامبراطورية الرومانية الى مخاطر خارجية جسيمة منذ اوائل القرن الثالث للميلاد. فالفوضى التي سادت الامبراطورية ، شجعت القوى الخارجية على التجاوز على حدودها والتغلغل في ارضها . ففي الشرق قامت اسرة حاكمة جديدة بلاد الفرس هي الاسرة الساسانية سنة ٢٢٦ للميلاد. وقد استطاع الساسانيون احتلال انطاكية لفترة من الزمن ، كما هددوا بقية اقاليم ا الامبراطورية . وفي الغرب توغلت القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية. والواقع ان وضع الامبراطورية الدفاعي كان حرجا الى درجة اضطرت معه الحكومة الرومانية الى صرف مبالغ طائلة على تحصين الكثير من المدن الداخلية ومن ضمنها روما نفسها.

العوامل الاقتصادية والاجتماعية:

قد تكون العوامل الاقتصادية والاجتماعية اكثر غموضا ، واصعب توضيحا من العوامل العسكرية والسياسية . وعلى أية حال، فإن هناك بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية تبدو واضحة المعالم فالحروب الأهلية

والفوضى السياسية ادت الى هبوط ملموس في عدد السكان ، وقد اثر هذا تأثير بليغا في مستوى الانتاجين الصناعي والزراعي. وقد تركت فعلا مساحات شاسعة من غير زراعة . وبوجود حكومة مركزية ضعيفة لم تعد الطرق آمنة فتعرضت الطرق البرية الى عصابات من قطاع الطرق ، كما تعرضت الملاحة في البحر الأبيض المتوسط هي الأخرى الى تهديد مستمراً من قراصنة البحر. وانخفاض الانتاجين الزراعي والصناعي من جهة وفقدان الامن في البحر وعلى اليابسة من جهة اخرى ، اديا الى تدهور خطير في التجارة.

ومن المحتمل جدا على الرغم من فقدان الاحصائيات الدقيقة في هذا الشأن الا ان يكون الميزان التجاري الداخلي للامبراطورية في صالح ولاياتها الشرقية على حساب الولايات الغربية . ولعل هذا الاختلال في الميزان التجاري يفسر بشكل رئيسي ما عانته الاقاليم الغربية من الامبراطورية من شحة ملحوظة في النقود . ومما زاد في هذه الشحة نقصان الانتاج في مناجم الفضة والذهب الأوربية. وحاولت الحكومة الرومانية علاج تلك الشحة بتزييف النقود تخفيض نسبة المعدن الثمين فيها وقد أدى هذا العلاج الى التضخم. والى فقدان النقود لقيمتها ، الأمر الذي زاد في ارباك الحياة الاقتصادية وشل جميع مظاهر النشاط الاقتصادي. لقد ترك هذا التدهور الاقتصادي أبلغ الأثر واعمقه في الاقاليم العربية وادت هذه الأزمة الاقتصادية في المدن من جهة واستمرار الحكومة في جباية الضرائب من سكان تلك المدن من جهة اخرى الى انهيار الطبقة الوسطى. تلك الطبقة التي كانت من انشط طبقات المجتمع الروماني. ودفع بالكثير من ابناء تلك الطبقة من تجار وصناع الى ترك المدن والفرار الى الريف للعمل بالزراعة هناك. وفي الريف الروماني اصاب المزارعين الاحرار وصغار الملاكين. ما اصاب الطبقة الوسطى في المدن . فان تعسف السلطة المركزية ، وفداحة الضرائب المفروضة عليهم ، ادت بهم الى حالة بائسة من الفقر – والاملاق. وقد اخذوا ينحدرون تدريجياً الى مستوى العبودية والقنانة. وعلى النقيض من هذا الاجحاف الذي اصاب الطبقة الوسطى في المدن وصغار الملاكين والاحرار في الريف، استفادت طبقة كبار الملاكين من الأوضاع الجديدة. فان سعة المقاطعات الزراعية التي ورثها عن الاباء وثراهم البالغ ومنزلتهم الاجتماعية الرفيعة مكنتهم من الصمود امام الازمات السياسية والاقتصادي التي كانت تجتاح الامبراطورية ، ومهدت السبيل لهم للحصول على مكاسب وامتيازات سياسة واقتصادية جديدة على حساب الحكومة المركزية من جهة ، وعلى حساب – الطبقات الأخرى من جهة ثانية . لقد تحدت طبقة كبار الملاكين السلطة المركزية الضعيفة وامتنعت عن دفع ما كان يترتب عليها من ضرائب . وفي هذا الوضع الذي عجز فيه صغار الملاكين والمزارعين الاحرار عن منافسة كبار الملاكين . وضاقوا ذرعا بتعسف جامعي الضرائب الحكوميين، اضطروا إلى

التنازل عن اراضيهم إلى كبار الملاكين لقاء حمايتهم وتوفير العيش لهم. وهكذا فان هذه الطبقة النشطة سارت هي ايضا في طريق الاختفاء من المجتمع الروماني وتحول افرادها إلى عبيد وأقنان.

العامل الإداري

وفي خضم الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي مال الجهاز الاداري للامبراطورية الرومانية إلى التدني والانحلال. لقد كانت الامبراطورية تضم بلدانا واقاليم كثيرة جدا في أوروبا واسيا وافريقيا وكانت لجميع تلك البلدان والاقاليم ، في اغلب الاحيان خلفيات ثقافية متنوعة ولها نظم ادارية متباينة. ونجحت الحكومة الرومانية في عصر قوتها، في دفع الجهاز الإداري إلى العمل بدقة ومقدرة متميزتين حتى وصفت الادارة الرومانية بانها اكفأ ما شهد التاريخ القديم وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية، ودب الضعف في أجهزتها السياسية ونظامها الاقتصادي برزت التناقضات في انظمتها الادارية. واستغل الموظفون الاداريون للك التناقضات واستغلوا كذلك ضعف الحكومة الرومانية وفقدان الرقابة المركزية الصارمة فعاثوا في الإدارة فسادا. وبمرور الزمن اصيب الجهاز الاداري برمته بالشلل والعجز والفساد.

عوامل اخرى

ذكرنا في مقدمة هذا البحث ان سقوط روما من الامور التي اثارت الاهتمام والجدل عبر العصور. فبالاضافة الى كل ما ذكر من اسباب فقد عرضت اسباب و عوامل اخرى و طرحت تفسيرات متباينة. فهناك من عزا سقوط روما لاسباب خلقية تتلخص في ابتعاد الرومان عن الخلق الرفيع وانغماسهم بالرذيلة . وهذا ما قاله بعض مؤرخي الرومان في – اواخر عهد الأمبراطورية وراى فريق آخر من المؤرخين أن ما حل بروما لم يكن الا نتيجة لغضب الآله الرومانية لعزوف الرومان عن عبادتها ولاعتناق المسيحية. بل ان هذا الفريق لم يتورع عن اتهام المسيحية صراحة ، فقد قال ان المسيحية بما بثته من مفاهيم وقيم تتعارض مع القيم والمفاهيم الرومانية ، وما خلقته من بلبلة في المجتمع الروماني هي المسؤولة عن تدهور روما وسقوطها. ودفع هذا الاتهام المفكرين المسيحين. وعلى رأسهم القديس أوغسطين ، الى الرد عليه بشدة. وفسروا بدورهم ما حدث بانه ارادة الله يعجز البشر عن ادراك كنهها، ثم ان هناك من يعتقد ان ما حدث لروما جاء بسبب الجرمان.

فالقبائل الجرمانية المتوحشة عملت على بربرة المجتمع الروماني المتمدن هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فان هجمات القبائل الجرمانية وتهديداتها المستمرة للامبراطورية استنزفت قوة الرومان وادت بالامبراطورية في نهاية الامر الى الانهيار والسقوط على ايدي الجرمان دون سواهم.

المحاضرة الثانية

(اصلاحات دقلديانوس ونتائجها)

ولد دقلديانوس في اقليم دلماشيا من أب فلاح وفتحت له الخدمة في الجبش الروماني مجال التقدم. واخيرا ، وعلى اكتاف الجيش ، ارتقى الى ذلك المنصب الرفيع منصب الامبراطور . واعتلاء دقلديانوس العرش يمثل بحد ذاته امرين مهمين كانا يميزان وضع الامبراطورية خلال تلك الفترة من تاريخها أولهما تركيب الجيش الروماني من عناصر غير رومانية وثانيهما الدور الذي كان يلعبه الجيش في سياسة الامبراطورية. وعلى اية حال فان دقلديانوس نفسه يعتبر خير ممثل للعصر الذي عاش فيه.

لم يكن مثقفا ثقافة عالية . ولم يكن ملما بتطور الانظمة الرومانية ، ولا متبحرا بتاريخ الرومان. ولكنه كان رغم ذلك متفهما لعصره مدركا مشكلات الامبراطورية التي هيأت له الاقدار اعتلاء عرشها وكجندي نظر لمشاكل الامبراطورية مـــن زاوية عسكرية بالدرجة الأولى فكان هدفه حماية حدود الامبراطورية اولا وقبل كل شئ .

عمل دقلديانوس على تقوية مركز الامبراطور فجرد مجلس الشيوخ من جميع ما تبقى له من سلطات. ولم يعد هذا المجلس سوى مجلس بلدي يخص العاصمة روما. لقد صارت السلطة مركزة بيد الامبراطور يساعده في الحكم جهاز اداري ضخم.

وكان الامبراطور – بمساعدة ذلك الجهاز يشرف على كل جزء من اجزاء الامبراطورية و بهذا قضى دقلديانوس على النظام الذي وضعه اوغسطس والذي كانت السلطة فيه موزعة بين الامبراطور ومجلس الشيوخ لقد ذهبت كل مظاهر النظام الجمهوري التي كان يتشبث بها الاباطرة قبل دقلديانوس وحل محلها نظام استبدادي واضح صريح كان دقلديانوس مدركا الوضع المزري الذي كان فيه المركز الامبراطوري ، لذا حاول بكل الوسائل اعادة الهيبة الى الامبراطورية من ذلك انه انشأ بلاطا فاخرا احاطه بكل مظاهر الفخامة والفخفخة .

رأى دقلديانوس بثاقب بصره ان الامبراطورية أوسع من ان يحكمها رجل واحد ، لذا قسم الامبراطورية الى قسمين ، وقسم كل واحد منهما الى جزئين . يحكم القسم الواحد شخص يحمل لقب امبراطور او اوغسطس يساعده شخصان يحكمان الجزئين اللذين يكونان قسمه يعرف كل واحد منهما باسم قيصر وكانت الاجزاء الاربعة مقسمة بدورها الى مناطق وعدد هذه المناعق ١٠٠ منطقة متساوية في المساحة تقريبا . لقد كان حكام المناطق يعينون ويعزلون من قبل الامبراطور. وعلى الرغم من ان السلطات المحلية قد ضعفت كثيرا نتيجة لهذه الاصلاحات فان

الامتيازات الشخصية، استمرت اذ ان كبار موظفي الحكومة كانوا قد كونوا طبقة خاصة يحمل اصحابها القابا فخمة ويضاف الى هؤلاء الموظفين الكبار جماعة الشيوخ. لقد كون كل هؤلاء طبقة متميزة ، كان عدد افرادها في ازدياد مستمر نتيجة لقيام الامبراطور بمنح بعض الافراد امتيازات خاصة كالاعفاء من الضرائب والاعفاء من بعض الواجبات الحكومية الأخرى واقطاعهم الضياع والاراضي ومع ان الوظائف والمناصب الحكومية لم تكن وراثية ، فانها اصبحت كذلك وذلك ان بقية الفئات والطبقات كانت في اوضاع اجتماعي غير قابلة للتبدل والتغيير.

واعاد دقلديانوس تنظيم الجيش. وقد استمرت عملية تحصين المدن الداخلية واصبحت فرق الحدود مقيمة ، وصار اصحابها من ذوي الامتيازات ومن كبار الملاكين ولجأ دقلديانوس الى انشاء قوة جديدة متحركة يمكن نقلها بسرعة من محل الى اخر في اي جزء من اجزاء الامبراطورية قد يتعرض الى الخطر. ولتوفير ما يقرب من ٥٠٠ الف جندي وهو ما تحتاجه الامبراطورية ، اضطرت الحكومة الرومانية الى تشجيع الجرمان والبربر والعرب على الانخراط في جيشها والواقع ان قبائل جرمانية بجملتها سمح لها باجتياز حدود – الامبراطورية على اعتبار انها

حليفة للامبراطورية وانها تكون جزء من قوة دفاعها. اراد دقلديانوس اصلاح الاوضاع الاقتصادية في الامبراطورية ، فحاول السيطرة على العملة وتثبيت قيمتها وتحديد اسعار المواد الغذائية ، وإيجاد نظم جديدة للضرائب والسيطرة على جميع المشاريع الاقتصادية التجارية والصناعية والزراعية. وكانت الازمة المالية هي المشكلة الاقتصادية المباشرة التي واجهت الامبراطورية الرومانية وتتلخص في زيادة مصروفات الحكومة على وارداتها ، وذلك نتيجة للجهاز الاداري الضخم والجيش الروماني الكبير من جهة ، وسوء نظام الضرائب من جهة اخرى . نجح دقلديانوس في تثبيت قيمة العملة ، ولكن النقود الذهبية والفضية بقيت شحيحة وقليلة. ومن اصلاحات دقلديانوس المهمة تنظيمه اصحاب الحرف المختلفة في نقابات اصناف وكان الغرض من ذلك اجبار كل نقابة على انتاج مقدار معين من الوحدات الصناعية وذلك لغرض المحافظة على كمية الانتاج الذي كان يعاني نقصا مستمرا. كما ان تنظيم اصحاب الحرف في نقابات كان ييسر امر جباية الضرائب من افرادها ، فقد صارت كل نقابة ملزمة بدفع مقدار معين من المال الى الحكومة.

وهي بدورها تجمع ذلك المال من منتسبيها واجبر دقلديانوس الابناء على الانخراط في نفس الحرف التي كان يمتهنها آباؤهم وكان لهذه الاجراءات اثرها في تخفيف هذه الضائقة المالية التي كانت تعاني منها الحكومة ولكنها في نفسه الحقت ابلغ الضرر بالمشاريع الفردية، وادت على المدى البعيد الى ركود الحياة في المجتمع الروماني.

وامتدت يد دقلديانوس الى الريف، ولكن قوة كبار الملاكين هنا حدت من سلطة الحكومة وحالت بينها وبين احداث اي تغيير جذري في وضع الريف الروماني لقد كان الفلاح الروماني الحر يؤلف ركيزة مهمة من ركائز المجتمع الروماني كما ان ضريبة الارض كانت مصدرا اساسيا للدخل الحكومي. وكل ما فعلته الحكومة عندما تدهورت الزراعة وتناقصت الضريبة انها منعت الفلاحين الاحرار من ترك اراضيهم، وأوكلت جمع الضريبة منهم الى كبار الملاكين . واحتفظ هؤلاء لانفسهم بالجزء الاكبر من الضرائب التي كانوا يجبونها من الفلاحين . وبمرور الزمن اسندت الى كبار الملاكين واجبات حكومية اخرى كحفظ الامن المحلي والقضاء.

لقد هيمن قسم من كبار الملاكين على مقاطعات واسعة جدا وتمتعوا فيها بنفوذ كبير للغاية ، وصاروا بذلك حكاما مستقلون فعلا . وهؤلاء هم بعض اسلاف النبلاء الاقطاعيين الذين سادوا باخلال عهد الاقطاع من العصور الوسطى.

من هذا العرض لاصلاحات دقلديانوس، يلاحظ انها كانت حلولا عملية لاوضاع حرجة تتطلب حلولا سريعة ومؤقتة، وكانت النتيجة جيدة في بعض الحالات فقد اعيد الامن الى اغلب اجزاء – الامبراطورية ، وحفظت الحدود ، لمدة قرن اخر من الزمن.

الامبراطورية في عهدي قسطنطين الكبير وثيودسيوس:

اعتلى الامبراطور قسطنطين انكبير العرش في مطلع القرن الرابع (٣٠٥ – ٣٣٧) وكان بحق من اعظم الأباطرة في التاريخ الروماني . فقد نجح في بسط سيطرة الدولة على اجزاء الامبراطورية ، بعد أن قضى على منافسيه الطامعين في العرش . كما انه دافع بنجاح عن الحدود. ويعتبر الاعتراف بالمسيحية و بناء مدرسة القسطنطينية من اهم انجازات هذا الامبراطور العظيم . وبالنسبة للامر الاول فقد اعترف قسطنطين بموجب مرسوم ميلان الصادر في عام ٣١٣ ، بالديانة المسيحية وبذلك اصبحت هذه الديانة في مستوى الديانات الاخرى السائدة في الامبراطورية الرومانية ، وبهذا قضى على مشكلة مهمة من مشاكل الامبراطورية التي بقيت لمدة طويلة مصدرا للمتاعب وعدم الاستقرار.

اما بالنسبة الى بناء عاصمة جديدة للامبراطورية في الشرق فقد قام الأمبراطور ببناء مدينة كبيرة محل بلدة بيزنطة القديمة على الضفة الاسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمرة وتأسيس هذه المدينة بحد ذاته يشير الى

الاهمية المتزايدة للاقاليم الشرقية، في الامبراطورية وانشئت هذه لتكون عاصمة الجزء الشرقي للامبراطورية الى جانب روما عاصمة الغرب .

وبينما سارت هذه المدينة في طريق النمو والازدهار منذ تأسيسها ، فان روما من جهة اخرى كانت تسير نحو التدهور والاضمحلال. وفي اواخر القرن الرابع اعتلى الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥) العرش في ظروف عصبية ولدتها معركة ادرنة الشهيرة التي دمر فيها الجيش الروماني امام الغوط الغربيين واستطاع ثيو دسيوس ان يعيد شيئا من الثقة والاستقرار. ومن اعماله المهمة قيامه بفصل الامبراطورية الرومانية فصلا تاما الى امبراطوريتين واحدة في الغرب عاصمتها روما وقد خص بها ابنه هونوريوس ، واخرى في الشرق عاصمتها القسطنطينية خص بها ابنه اركاديوس وبهذا يكون ثيودسيوس قد اتم كل ما شرع به كل من دقلديانوس وقسطنطين. فالاول بدا بفكرة تقسيم الامبراطورية ، ولكن تقسيمه كان صوريا فقد بقيت في الواقع امبراطورية واحدة . والثاني انشأ فعلا عاصمة جديدة فصارت للامبراطورية عاصمتان. وجاء ثيو دسيوس ليتخذ الخطوة الاخيرة في عملية الفصل .

المحاضرة الثالثة

(تاريخ اوربا في العصور الوسطى)

١) ظهور المسيحية وانتشارها:

ظهرت الديانة المسيحية في فلسطين وانتشرت في اقاليم الامبراطورية الرومانية شرقا وغربا بسرعة تثير الاعجاب والتساول . فهذه الديانة الشرقية التي بشر بها رجل كان يعيش في بقعة مغمورة تقع في زاوية نائية من زوايا الامبراطورية ، قدر لها ان تنتشر ذلك الانتشار الواسع ، وان يعترف بها ديانة رسمية في الامبراطورية الرومانية بعد ثلاثة قرون فقط من ظهورها ، ولتصبح بعد ذلك بوقت قصير الديانة الوحيدة المعترف بها بل الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية المترامية الاطراف.

ثمة تعليلات كثيرة لذلك النجاح الذي حققته المسيحية منها : طبيعة تركيب الامبراطورية الرومانية فقد كانت اجزاء هذه الامبراطورية مرتبطة بعضها مع بعض بشبكة من الطرق ووسائل المواصلات لا نظير لها في العالم القديم اجمع وكان الامن يسود تلك الطرق وقد ساعد هذا على انتقال العقائد والافكار بين اقاليم الامبراطورية بسرعة ويسر تماماً كما كان يساعد على انتقال التجارة وتحرك الجيوش ثم ان طبيعة الديانة المسيحية التبشرية ساعدت على سرعة انتشار المسيحية . لقد انتشرت المسيحية في بداية الامر بين المحرومين والفقراء من سكان المدن ، ثم اخذت تنتشر بين كل الفئات والطبقات، لقد كان المسيحيون الأوائل كلهم مبشرين . كانوا يحملون ديانتهم الجديدة ويدعون لها في حلهم وترحالهم . ولم يكن هناك من شي ادعى الى السعادة الى قلب المسيحي من كسبه مؤمن جديد الى ديانته المسيحية . لقد كان المسيحيون يبشرون دون خوف او وجل بثبات واصرار وكثيرا ما تعرضوا بسبب ذلك الى الاذى والاضطهاد. وبالإضافة الى هذا فقد كانت فئة من المسيحين الأوائل تركت امور الدنيا كافة وكرست حياتها وجهودها من اجل التبشير بالعقيدة الجديدة ولهذه الفئة بالذات يعود الفضل الاول لما حققته المسيحية من النجاح . ومن هؤلاء بطبيعة الحال تلامذة السيد المسيح المقربون او ما يسمون بالرسل والحواريين. وفي مقدمة اولئك الرسل القديس بولص وهو مثقف يهودي ومواطن روماني من اهل طرسوس. كان خصما للمسيحية في بداية الامر ثم صار من المؤمنين بها.

تميز القديس بولص بثقافة عالية جدا فقد كان بطبيعة الحال عارفا بالتعاليم اليهودية وبتراثها. ثم انه كان ملما بالفلسفة اليونانية وبالأفكار والاتجاهات التي كانت سائدة في عصره. والى جانب هذا وذاك كان مطلعا على الديانات الشرقية المختلفة التي كانت اخذة في الانتشار في نفس الوقت الذي ظهرت فيه المسيحية وبدأت في

الانتشار. لقد بشر القديس بولص بالمسيح وبالديانة الجديدة . وكان تبشيره ومواعظه موجهة بالدرجة الأولى الى ابناء قومه ومواطنيه ولكنه في الوقت نفسه امن ، منذ البداية ، ايمانا مطلقا وعميقا بان المسيحية ديانة جميع الاقوام والشعوب والاجناس. لقد سافر بولص في طول الامبراطورية الرومانية وعرضها واحاط بـه في كل مكان مجموع التلامذة المتحمسين للعقيدة الجديدة . واوجد في كل بقعه حل بها جماعة . المؤمنين الغيورين كان همها بعد ان يفارقها القديس بولص القيام بدوره بالتبشير للديانة المسيحية وكسب الانصار والمؤيدين لها.

والى جانب جهود المسيحيين الاوائل وتضحياتهم ودور الرسل والحواريين ، فان التطورات الفكرية والدينية التي كانت تشهدها الامبراطورية الرومانية وقت ظهور المسيحية قد تعطي تفسيرا ملائما لنجاح المسيحية .

لقد كانت الوثنية اليونانية والرومانية فقدت الكثير من حيويتها وجاذبيتها بسبب الانجازات الثقافية والفكرية اليونانية العظيمة . وحاول اوغسطس دون جدوى ، رفع منزلة الالهة الرومانية من جديد . ولم يوفق اوغسطس الا بتأكيد عبادة الامبراطور. وقد اصبح هذا في الواقع هو الدين الرسمي للدولة . ولكن عبادة الامبراطور بحـ ذاتها اثارت شكوك المثقفين والنابهين اذ لم تكن لتتفق مع العقل والمنطق، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يمكن القول ان الفلسفة العقلية لا تغني عن العقيدة الدينية ، طالما انها لا تفي بحاجة الرجل العادي العاطفية ولا تشبع رغبته للايمان والخلاصة يمكن القول انه كان هناك فراغ روحي ولعل هذا يفسر انتشار الاديان الصوفية الموغلة في الغيب والغموض والخيال ، بل في الخرافات والاساطير والوافدة الى العالم اليوناني والروماني من الشرق.

لقد كانت تلك الديانات الوافدة تتميز كلها بتجاوبها مع العاطفة من خلال الخيال والغموض من ناحية والشعائر والطقوس المعقدة من ناحية اخرى . وهكذا نرى انه في الوقت الذي اخذت فيه المسيحية الظهور والانتشار كان المثقفون قد وجدوا عزاء لهم في الاتجاهات الفلسفية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، امـا العامة فقد وجدت ذلك العزاء في الديانات الشرقية الصوفية ومع ان الافلاطونية الجديدة حاولت التوفيق بين الاتجاهين وحاولت ان تكون همزة الوصل بينهما الا ان نجاحها كان محدودا وقد يقال بشيء كثير من الصواب ، ان المسيحية ظهرت في وقت كان العالم فيه خاليا من دين حقيقي شامل وانه كان هناك فراغ روحي. جاءت المسيحية لتملأه .

حقا لقد عرضت المسيحية اشياء كثيرة كانت الديانات الشرقية قد عرضتها من قبل. ولكن المسيحية اضافت اشياء جديدة قصرت الديانات الاخرى عـــن بلوغها من ذلك تأكيدها الاخوة الانسانية تحت رعاية الابوة الالهية . التعاليم المسيحية اعطت مفهوما مسيحيا متميزا للحب والعطاء والاحسان والمسيحية ذهبت الى ابعـ مدى مما ذهبت اليه اية ديانة شرقية في عرض افكار اجتماعية واقعية توفر الفائدة في الحياة الدنيا والسعادة والهناء

الآخرة . وقد قال القديس بولص معبرا عن المفاهيم المسيحية ولو كنت املك نعمة التنبئ واعلم الغيب ، ولو كنت احيط علما بجميع الغموض والاسرار ، ولو كانت عندي المعرفة بكل شيء ، ولو كانت لدى كـل العقيدة والايمان ، فاستطيع بهما زحزحة الجبال الشامخات ، ولكني لا املك الحب والاحسان ، فانا لا شيء،

ويرى البرفسور . اس. هويت ان هناك ثلاث خاصيات للديانة المسيحية مكنتها من البقاء والانتصار هي:

ايمان المسيحيين المطلق بديانتهم ورفضهم التام لاية ديانة وعقيدة اخرى. تمييز انفسهم عمن سواهم بشكل حاد و فاصل دون مخاتلة و مهادنة من اي شكل. وللديانات الاخرى كلها آله. ولكن اله المسيحيين حريص ان لا يدعى احد سواه . انه الاله الواحد القدير ، وهو الواحد الاحد، والمسيحيون هم عباده المختارون المخلصون . وقال القديس بطرس انتم اية العباد المختارون. الملكيون . انتم الامة المقدسة . وانتم الصفوة من العباد. وهذه النظرة الى ربهم والى انفسهم جعلت المسيحيين مبغوضين مكروهين، ولكنها في الوقت نفسه شدت بعضهم الى بعض. وصهرتهم في جماعة متماسكة ، وكونت لديهم حسا وضميرا مشتركا. وجعلت منهم قاعدة صلدة استطاعت الحفاظ على ذاتها اولا ثم الاندفاع في التوسع على حساب الديانات والعقائد الأخرى في نهاية الأمر.

اعتراف المسيحية الصريح بحقوق السلطة الدنيوية لقد وضع القديس بولص ، الاساس للفكر السياسي المسيحي حين قال لا توجد سلطة غير سلطة الله وتلك التي فوضها وخولها . و من يقاوم هذه السلطة المفوضة يكون قد قاوم الله . وجزاء مثل هذا الهلاك والجحيم . والواقع ان المسيحيين لم يتعرضوا ابدا للامبراطورية الرومانية ولم ينافسوها سلطانها ، طالما ان مملكتهم لم تكن في هذه الدنيا ، بل في ملكوت السموات انهم ضيوف عابرون الى دار القرار . ولذا فان الحكومة الرومانية ، على الرغم من الصرامة والقسوة اللتين عاملتهم بهما في بعض الاحيان كانت متسامحة معهم بشكل عام . ولم تبذل تلك المحكومة اية محاولة جادة لاستئصالهم . ولم تشن حملات الاضطهاد القوية الا في ظروف الاضطراب خلال القرن الثالث للميلاد .

والمسيحية كما قلنا لم تهاجم الدولة ولم تتعرض لسيادتها ، ولكنها في الوقت نفسه لم تنصاع لها ولم تستكين لارادتها. لقد حرص المسيحيون على ان يكونوا مستقلين كل الاستقلال في مجال عبادتهم وعقيدتهم دون السماح لاى تدخل فيها باي شكل من الاشكال . كانوا مخلصين لهذا المبدأ اعطي ما لقيصر القيصر. وما لله لله ولذا رفضوا بثبات واصرار عبادة الامبراطور الامر الذي كانتتعتبره الحكومة الرومانية مظهرا من مظاهر الولاء السياسي والذي رأى فيه المسيحيون كفرا والحادا . ورفض المسيحيين المطلق لتدخل السلطة الزمنية في شؤون عبادتهم سبب لهم الكثير من المتاعب ولكن اكسبهم على المدى البعيد القوة والقدرة على البقاء.

٢) موقف الحكومة الرومانية من الديانة المسيحية – عهد الاضطهاد – حتى عام ٣١٣:

لم ترحب الحكومة الرومانية بالمسيحية وقاومت انتشارها مقاومة شديدة وذلك علي الرغم مما عرف عن سياسة تلك الحكومة من تسامح تجاه الاديان المختلفة . وهناك اسباب مهمة دفعت الحكومة الرومانية الى اتخاذ موقف متشدد من الديانة المسيحية ، منها :

(أ) ان المسيحيين الاوائل ، كان جلهم تقريبا يقيمون في المدن ، وعاشوا في عزلة عن بقية الناس. مما اثار الشكوك حولهم . وحمل السلطات الرومانية على الوجل منهم ثم دفعها الى اتهامهم بالتآمر على سلامة الدولة .

لقد كان معظم المسيحيين الأوائل من الاغريق الساكنين في المدن الرومانية والناقمين . ومن العبيد المضطهدين وكان كل من اولئك وهؤلاء في الاساس موضع شك وازدراء . من قبل المواطنين الرومان والحكومة الرومانية.

(ب) والاهم من هاذا وذاك ان المسيحيين رفضوا عبادة الامبراطور ورأوا في تلك العبادة ضربا من الوثنية البغيضة ، لا يمكن التهادن معها . في حين ان عبادة الامبراطور كانت امرا اساسيا بالنسبة للديانة الرومانية القديمة ودعامة من دعائم الحكم وركيزة من ركائز الوحدة ومظهرا من مظاهر الولاء . ورأت السلطات الرومانية في المسيحية الناكرة لعبادة الامبراطور، تهديدا خطيرا ليس لسلطان الامبراطور ومقامه الرفيع بل للامبراطورية وكيانها ومثلها. ومثل هذا جريمة يستحق صاحبها عليها العقاب. ولعل المؤرخ الروماني تاكيتوس عبر خير تعبير عن رأى الرومانيين في هذا المجال. فقد اتهم المسيحيين بعدائهم للجنس البشري وذلك لاستمتاعهم وولعهم في التشكك بكل القيم التي يقوم عليها المجتمع المتمدن انهم يضعون مصالحهم الدينية فوق مصالح المجتمع والدولة والواقع ان كثيرا من المثقفين لم تكن لديهم القناعة التامة في عبادة الامبراطور ولكنهم كانوا مضطرين لاظهار الرضى خدمة لمصلحة المجتمع.

ودفعت الاسباب الانفة الذكر بالحكومة الرومانية ، بل بعامة الناس الـ مقاومة المسيحية ، وكانت تلك المقاومة تتخذ احيانا صفة الاضطهاد والتعذيب بالقتل ايضا . وعلى الرغم من مبالغة المسيحيين في وصف ذلك ، فانه من المؤكد ان سياسة الحكومة الرومانية المعادية للمسيحية لم تبلغ ابدا من الصرامة بحيث تستأصل معها المسيحية او يحال دون انتشارها.

ودفع الموقف المعادي الى المسيحيين بهؤلاء الى ممارسة عبادتهم وابداء طقوسها في الخفاء ، بعيدا عن اعين السلطة ورقابتها . وكان افتضاح امرهم يعرضهم للعذاب والتنكيل. ومع هذا فقد ابدى الرجال والناس ، بل والاحداث ايضا شجاعة وثباتا . وواجهوا التعذيب باقدام وصبر يثيران الاعجاب . وكان يلقى بهم في بعض

الاحيان الى الوحوش والاسود في الساحات العامة امام اعين المتفرجين ، دون ان ينال منهم ذلك شيئا ودون ان يستكينوا لمضطهديهم أو يتراجعوا عن عقيدتهم.

وجاء اضطهاد المسيحيين على يد اباطرة جائرين عرفوا بظلمهم وطغيانهم مثل نيرون ، كما جاء على يد اباطرة آخرين عرفوا بالعدل والتعقل مثل دقلديانوس. ويمكن القول ان اغلب الاباطرة كانوا اكثر تساهلا مع المسيحيين من الحكام المحليين ، فقد كان هؤلاء اكثر ميلا للتشدد واكثر استجابة لضغط الرأي العام المعادي للمسيحية . ولسنين طويلة كانت سياسة الحكومة الرومانية تلخص بما ورد في رسالة الامبراطور تراجسان الى احد حكام الولايات وجاء فيها ما دام المسحيون لا يجاهرون بعبادتهم وعقيدتهم فدعهم وشأنهم.

٣) الاعتراف بالمسيحية (مرسوم ميلان):

وصار واضحا في اوائل القرن الرابع انه على رغم من اجراءات الحكومة الرومانية ضد المسيحية ، سواء كانت تلك الاجرات شديدة ام معتدلة ، فان عدد اتباع المسيحية ازداد الى درجة يتطلب الامر معها نوعا من الاعتراف بهذه الديانة واتخذت هذه الخطوة على يد الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ وذلك بموجب مرسوم ميلان الشهير. حيث اصبحت المسيحية من الاديان المعترف بها في الامبراطورية الرومانية وصارت بذلك على قدم المساواة مع بقية الاديان. اما الدوافع وراء خطوة قسطنطين هذه ، فهي غير واضحة فبالنسبة للرواية المسيحية القديمة فان الامبراطور عند تقدمه الى اوربا في حرية ضد ما كسنتوس وفي ساعة حرجة من ساعات الحرب رأى بعد غروب الشمس نورا من السماء وفي وسطه صليب وتحته هذه العبارة ، ستنتصر بفضل الله ، ، فما كان من قسطنطين الا واتخذ الصليب شعارا له خلال المعركة فتم له النصر ، الامر الذي دفعه الى الاعتراف بالمسيحية . والحقيقة ان قسطنطين نفسه لم يصبح مسيحيا الا في أواخر حياته كما انه لم يتخل ابدا – خاصة في الشرق – عن الخاص بعبادة الامبراطور. وهذا يدل من غير شك ان الاعتبارات السياسية ورغبته في القضاء على عامل من عوامل التوتر والقلق في الامبراطورية هي المسؤولة ايضا عن اتخاذ هذه الخطوة وليس الاعتبارات الدينية المجردة فقط . ومهما تكن الحوافز الحقيقية لاعتراف قسطنطين بالمسيحية فان خطوته هذه كان لها اهميتها البالغة بالنسبة لمستقبل المسيحية ولمستقبل اوربا.

واصيبت المسيحية بانتكاسة مؤقتة على يد الامبراطور جوليان المرتد (٣٦١ – ٣١٣) ، ولكنها انتكاسة جاءت لتؤكد قوة الديانة الجديدة وصمودها. وفي عهد الامبراطور نيودسيوس ٣٩٥ رفعت المسيحية الى مستوى الديانة الرسمية للدولة . واعقبها اقدام الحكومة الرومانية على اضطهاد بقية الاديان وهكذا قبل ان تسقط الامبراطورية الرومانية كانت قد اصبحت امبراطورية مسيحية .

المحاضرة الرابعة

(انتشار المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس)

صار واضحا في اوائل القرن الرابع انه على رغم من سن اجراءات الحكومة الكنيسة المسيحية مجال نشاطها طيلة القرن المذكور في كل جزء من اجزاء الامبراطورية ونجحت في اقامة مؤسسات ثابتة كما ارست لها قواعد راسخة تتمثل في النظام الكهنوتي والبابا والاساقفة .

وعندما انهارت السلطة الرومانية نهائيا في الغرب في القرن الخامس كانت الكنيسة بتنظيماتها تمتلك القدرة على البقاء ، بل انها كانت مهيأة لتمارس سلطتها ونفوذها على المجتمع الاوربي ولتخلف الامبراطورية الرومانية كهيئة متمدنة مهمة في اوربا .

ولم تنجح الكنيسة الكاثوليكية في تطوير الكنيسة فحسب ، بل انها توسعت جغرافيا متخطية حدود الامبراطورية الرومانية القديمة. وعندما فتح السكون بريطانيا كادت المسيحية ان تدحر فيها ، بل كادت العزلة تفرض على الجزر البريطانية برمتها. ولكن القديس باتريك الذي قضى ٦ سنوات في ارلندة اثناء شبابه ، ثم صار راهبا في بلاد المغال . سنة ٤٦١ الى ارلندة ليقوم بتبشير آسرية السابقين . وكان من دواعي سعادته ان يرى قبل وفاته غالبية الأرلنديين وقد اهتدوا إلى المسيحية. بل قام الارلنديون انفسهم بدور تبشري فعال.

وعبر المبشرون الارلنديون بقيادة سنت كولومبا (٥١٢ – ٥٩٧) المياه الى الشاطئ الشمالي لا نكلترا حيث وجدوا شعبا يتكلم لغة قريبة من اللغة الكلتية . ولما كان الاسم اللاتيني للارلندي هو سكوتا (Scota) فقد اطلق هذا الاسم على الجزء الشمالي من بريطانيا فعرف يسكوتلاند (Scotland) وعبر مبشرون ارلنديون آخرون البحر الى (برتاني) الكلتية حيث توغلوا في مملكة الفرنجة التي كانت حتى ذلك الوقت وثنية ونشروا المسيحية هناك. وفي اواخر القرن السادس (٥٩٧) ارسل البابا غريغوري الراهب او غسطين لهداية السكسون في جنوب انكلترا . وقد حقق هذا نجاحا منقطع النظير. وقام مبشر سكسوني هو ونفرد الذي عرف فيما بعد باسم بونيفاس بتأسيس كنيسة في الاقسام الشرقية لمملكة الفرنجة . ويعتبر معظم الالمان حتى ايامنا هذه القديس بونيفاس قد يسهم القومي. وفي الشرق قام القديسان الاخوان مثيديوس وسيرل بنشاط كبير وحققا نجاحا متميزا في هداية الشعوب السلافية. وحيثما حلت الكنيسة فان اراءها الدينية اثرت في جوانب الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وفي الوقت نفسه كانت سلطة الكنيسة في كل مكان تحددها الاوضاع السائدة فيه ففي الشرق حيث وجود حكومة قوية جعل السلطة والسيادة بيد الحكومة الامبراطورية وجعل الكنيسة خاضعة لها ، في حين ان فقدان مثل هذه السلطة في الغرب جعل سلطة الكنيسة هي العليا واضفى على الكنيسة من المهابة والمنزلة الرفيعة مالم يتوفر لنظيرتها الشرقية.

الهرطقة:

تعرضت الكنيسة المسيحية الى عديد من حركات الانشقاق منذ فجر تاريخها والمقصود بالهرطقة البدعة ، او الخروج على العقيدة المعترف بها من قبل الكنيسة او الخروج على جزء منها . فالهرطقة انشقاق وخلاف روحي وثقافي ليس له صلة بالقضايا الاخلاقية او بالمعاصي مهما كانت هذه كبيرة . وعندما يكون عدد الخارجين على العقيدة كبيرا وحركتهم واسعة يتطلب الأمر ردا قويا وشاملا من الكنيسة . وكثيرا ما ادت مقاومة الحركات الهرطقية الى تقوية الكنيسة وتعزيز مكانتها واغلب الحركات الهرطقية قادت الكنيسة الكاثوليكية الى امرين هامين ، أولهما : اعطاء تعريف رسمي دقيق ومحدد للعقيدة المختلف عليها ، وثانيهما : اتخاذ اجراءات قمعية او اقناعية تجاه الهراطقة.

وظهرت معظم الحركات الهوطقية خلال القرون الأولى من تاريخ المسيحية حول امور تتعلق بعقيدة الثالوث . فهذه نقطة يكتنفها من غير شك الغموض وهي صعبة الفهم والتفسير فكان هناك سؤال دائم حول طبيعة وشخصية السيد المسيح وعلاقته بالاب. ولعل اريوس (Arius) هو اقدم الهراطقة ومنه اشتقت الأريوسية التي ظهرت عام ٣٢٣ . واريوس هذا كان من الاسكندرية . وقد اثار هذا الجدل : اذا كان المسيح هو ابن الله فهو لا بد ان يكون اصغر منه واحدث ، وعلى هذا فهو اذن اقل منه شأنا . ان من صفات الله الازلية تعني ان لا بداية هناك ولا نهاية . ولكن المسيح غير ازلي لان له بداية . لذا فهو ليس اله بالمعنى التام. لقد استنكر اسقف الاسكندرية هذه الاراء وصدرت على اربوس عقوبة التحريم . واحدثت افكاره بلبلة كبيرة وشقت المسيحيين على انفسهم الامر الذي دفع بالامبراطور قسطنطين الكبير الى عقد نيقية عام ٣٢٥ . وقد حضره الاساقفة من مختلف انحاء العالم المسيحي . وفي مجمع نيقية هذا حددت و عرفت بدقة ازلية السيد المسيح ووحدته الكاملة بالاب. وبقيت الاريوسية تقاوم . ولكن العقيدة الكاثوليكية حققت النصر اخيرا بمساندة الحكومة الرومانية لها .

ونجحت الاريوسية في تحقيق انتصار في مجال اخر ، فقد قام المبشرون الاريوسيون بنشر هذه الديانة بين القبائل الجرمانية الأمر الذي سيكون له نتائج مهمة كما يتضح ذلك في دروسنا القادمة.

وجوبهت الكنيسة الكاثوليكية بهرطقة اخرى قام بها المنوفستيون القائلون بوجود طبيعة واحدة للسيد المسيح . وقد استنكر مجمع خلقدونيا (عام ٤٥١) هذا القول ، واكد تعريفه وتحديده السابق لشخصية السيد المسيح ولطبيعته. وقد نجحت المنوفستية في نشر تعاليمها في الشرق وصار لها انصار كثيرون في مصر وسوريا وفلسطين الامر الذي سبب كثيرا من المتاعب والمشكلات للاباطرة الشرقيين.

المحاضرة الخامسة

(مقدمة في الشعوب التيتونية اصولها ، عددها ، قبائلها)

قدر للشعوب التيتونية ان تضع نهاية للامبراطورية الرومانية في الغرب . ولهذه الشعوب اهمية خاصة في تاريخ اوربا ، فهي بعد ان استقرت في الاقاليم الغربية الامبراطورية ، أثرت تأثيرا عميقا في رسم معالم التركيب البشري والسياسي والثقافي لتلك الاقاليم. ومن العنصرين الروماني والتيتوني ، بشكل رئيس ، برزت الامم الأوربية الحالية مثل الايطاليين والفرنسيين والالمان والاسبان والانكليز ، بلغاتهم وشعوبهم ، ودولهم وآدابهم وثقافاتهم .

واذا كانت اوربا تمثل في العصر الحديث وحدة حضارية لها خصائصها وسماتها المتميزة ، فان تلك الوحدة ترجع الى ثلاثة اصول هي : التراث الكلاسيكي اي اليوناني والروماني ، خاصة الروماني . منه ، والمسيحية ، ثم الشعوب التيتونية. واختلفت الآراء حول الموطن الاقدم للشعوب التيتونية، فقيل الهند ، او بعض مناطق آسيا الوسطى ، او شمال البحر الاسود. ولكن الامر المعروف تماما ، انهم كانوا يسكنون في وقت من الاوقات شبه جزيرة اسكندنافية وحول بحر البلطيق . وقدر الوقت الذي استغرق لهجرتهم من مواطنهم الاصلية الى مناطق الراين والدانوب بالف وخمسمئة عام .

وانحدرت تلك القبائل التيتونية التي ضغطت على حدود الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد عبر المنطقة الكائنة جنوب بحر البلطيق وعرب نهر الفستولا. وقد سبق الكلتيون التبتونيين في استيطان اوربا ، فسكنت الشعوب الكلتية في وقت من الأوقات كل وسط اوربا من المحيط الاطلسي الى البحر الاسود . اما الشعوب السلافية فقد جاءت في اعقاب الشعوب التيتونية وانتشرت في المنطقة الواقعة في اسفل منابع الفستولا ونهر الاودر .

وقد اطلق الرومان على الشعوب التيتونية اسم الجرمان (Germani) وليس هناك اتفاق تام عن اصل هذه التسمية . ويقول المؤرخ الروماني تاكسيتوس ان التسمية في الأساس هي لقبيلة تيتونية معينة ثم اخذت تطلق على جميع القبائل التيتونية.

واعتاد الرومان ان يطلقوا على التيتونيين ايضا اسم البرابرة (barbarians) وهذه لا تعني بكل تأكيد الهمج او المتوحشين ففي الاصل اللاتيني نشير لفظة بربري (barbarl) الى اولئك الناس الذين لا يتكلمون اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ، وبمرور الزمن صارت اللفظة تطلق على أولئك الذين تختلف حضارتهم شأنا عن الحضارة

اليونانية والرومانية ، واخيرا اطلقت على اولئك المتخلفين حضاريا او اولئك الذين تعوزهم صفات واخلاق وميزات المجتمع المتمدن . وفي القرن الرابع الميلادي، حيث صار الجيش الروماني مؤثلفا باغلبيته من الجرمان ، كانت كلمة بربري تستعمل مرادفة لكلمة جندي وفي وقت اشتدت فيه الهجمات الجرمانية وازداد فيه الهلع والخوف منهم، خاصة في القرنين الرابع والخامس بولغ كثيرا في عدد نفوس القبائل الجرمانية وفي عدد افراد كل قبيلة . ولعل الأمر الذي شجع على تلك المبالغة كثرة تنقل القبائل الجرمانية وسرعة حركتها من محل الى آخر. ولكن التقديرات المقبولة ، تعطي القبائل الكبيرة منها او الشعوب – وهذه اتحادات قبلية كبيرة – مئة الف فرد منهم بين عشرين وثلاثين الف مقاتل والبقية من النساء والاطفال والشيوخ والعبيد . ولعل ما يدلل على خوف الرومان من كثرة عدد الجرمان ذلك الأمر الذي اصدره ثيودسيوس منع بموجبه الغوط من ارتداء زيهم الخاص عند الظهور في المدن الرومانية ، وذلك كي لا تثير كثرتهم القلق والخوف في النفوس.

هذا من ناحية عدد النفوس ، اما من حيث عدد القبائل والعشائر المتفرعة منها واسمائها فانها امور يصعب معرفتها . فقد كانت هناك تجمعات قبلية كبيرة ، وكانت هناك احلاف قبلية . وكانت هذه كثيرة وسريعة التبدل والتغير ، اذ كثيرا ما تنتقل القبيلة الواحدة من حلف الى آخر . والاسم الوحيد المعروف في اغلب الاحيان هو اسم القبيلة المتفوقة والمنتصرة وكثيرا ما فرض هذا الاسم على القبائل الأخرى الصغيرة او المندحرة و ذكر المؤرخ الروماني تاكيتومي في نهاية القرن الأول للميلاد اسم خمسين قبيلة . واعطى اخرون في القرن الثاني للميلاد اسماء سبعين قبيلة .

وكانت القبائل الجرمانية القاطنة على طول نهر الراين وعلى حدوده الشمالية السكسون ((saxons) (الانكليز) (Angles) (الألمـ باني) (Almani) البرغنديون (Burgundion) والفريزيون (Frisions) السوفي (Suevi)

اللومبارد (Lombards) الفرنجة البحريون (Ripuarian franks) والفرنجة الساليون او البريون . وعلى طول حدود الدانوب و شماله كانت هناك (Salian Franks) ماركوماني (marocomani) كودي (Quadi) جابيدي (Gapidaae) هرولي (Herali) الوندال (Vandals) الغوط الغربيون [visigoths) الغوط الشرقيون (ostrogoths) . واما القبائل الاكثر اهمية واماكن سكناها على وجه التحديد هي كما يلي : الألماني في الجهات الجنوبية الشرقية لنهر الراين البرغنديون حول نهر المين ، الفرنجة البحريون جهات الراين السفلى . الفرنجة الساليون أو البريون في الاراضي المنخفضة . السكسون والا نكلز بين نهري الراين والالبا على سواحل بحر الشمال والى الشرق منهم قبائل اللومبارد . ثم الغوط الشرقيون في الجهات الشمالية الشرقية للبحر الاسود

والى الغرب منهم الغوط الغربيون . الوندال في جهات الدانوب الوسطى بين فينا وبودابست الحاليتين . وهناك جماعتان من بين كل ما ذكر قدر ان يكون لهما اثر دائم هما : الانكليز والفرنجة .

القبائل الجرمانية (علاقاتها الأولى بالرومان) :

بدأت القبائل الجرمانية في التحرك باتجاه نهرى الراين والدانوب من اما كن سكناها حول بحر البلطيق حوالي ٥٠٠ ق . م . واستمرت حركتها هذه خمسة قرون دون توقف ، كان الرومان خلالها منهمكين في حل مشكلاتهم الداخلية وفي فتوحاتهم الخارجية ، فلم يكترثوا كثيرا لهؤلاء الجرمان البعدين عنهم والذين لا يعرفون عنهم الا الشيء القليل . وقد وضعت حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال واحتلاله لها . في القرن الأول قبل الميلاد الرومان والجرمان وجها لوجه لأول مرة في التاريخ . ومن حسن الحظ أن يوليوس قيصر نفسه قد ترك لنا وصفا ممتعا لانطباعاته الشخصية عن هذه الشعوب . ويمثل وصفه هذا اقدم المعلومات المتوفرة عن القبائل الجرمانية ، وردت هـ كتابه عن حملته على بلاد الغال الذي نشر في عام ٥١ ق . م .

وخلاصتها (انهم شعوب رعوية محاربة ، مولعون بالصيد والحرب اكثر من ولعهم بالزراعة ، يغطون جزءا صغيرا من اجسادهم بجلود الحيوانات ويتركون الجزء الاكبر منه عاريا . وهم كرماء ونظيفون ، يستحمون في الترع والبحيرات بمجموعات كبيرة وما يملكون من ارض مشاع للقبيلة كلها ولا يسمح لفرد واحد بامتلاك قطعة خاصة.

وبعد مرور قرن ونصف على وصف يوليوس قيصر الانف الذكر، جاء كتاب تاكيتوس: الجرمان (Germania) ليعطي تفاصيل اكثر عن حياة الجرمان وعن عاداتهم و طراز معيشتهم وديانتهم ومؤسساتهم السياسية . انهم يتميزون بشعرهم الاحمر او الاشقر وعيونهم الزرق واجسامهم الضخمة القوية . انهم مولعون بالحرب والصيد يبغضون العمل اليدوي والزراعة لذا يتركون هذه للنساء والعبيد . يقاومون البرد والجوع ، ولكن لا طاقة لهم بتحمل العطش والحر ، يحبون الشراب والمقامرة و هم محاربون اولا وقبل كل شيء . قوانينهم مجموعة من التقاليد والعادات وهي تختلف من قبيلة الى اخرى . والواقع ان الدافع من وراء تأليف تاكيتوس لكتابه هو توبيخ لمواطنيه الرومان لتدني مستواهم الخلقي بالمقارنة مع أولئك الجرمان البسطاء حيث الحياة العائلية والزوجية عندهم تمثل نموذجا للعفة والطهارة والصفاء، والمجتمعات الجرمانية مجتمعات قبلية . التأكيد فيها على رابطة القرابة والدم وليس على رابطة الوطن والمواطنة . وكانت بعض القبائل الجرمانية تتحد مع بعضها البعض فتكون اتحادات قبلية كبرى او شعوبا . وكان هناك ملوك على رأس كل شعب من تلك الشعوب . وفي البداية لم يكن أولئك الملوك سوى زعماء حرب وقادة جيوش ، اختيروا من قبل الاحرار وهم خاضعون لارادتهم . ولكن في الوقت الذي

دخلت فيه الشعوب الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية ، كانت قد تطورت بحيث اصبح هناك لانتخاب القائد أو الزعيم من عائلة معينة وهكذا فان الشعوب الجرمانية اخذت بالنظام الملكي ومبدأ الوراثة في الحكم.

وكانت القبائل الجرمانية خلال القرون الثلاثة التي سبقت سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في حركة مستمرة ، فهي ابعد ما تكون عن الاستقرار، ولعله من غير الصواب الاعتقاد بان الامبراطورية الرومانية واجهت خطرا جرمانيا موحدا . والواقع ان الحروب بين الشعوب الجرمانية نفسها والخلافات القبلية مكنت الحكومة الرومانية لفترة طويلة من استخدام احدى القبائل ضد الأخرى ، وتحريك زعيم ضد آخر ثم الاحتفاظ بنوع من السيطرة والنفوذ عليهم جميعا. ونتيجة لتلك القرون الطويلة من الجوار صار الكثير من الجرمان ملمين بطريقة الحياة الرومانية شغوفين بها . وقد اسعف الحظ بعضهم فعبروا الحدود الرومانية أفراداً وجماعات ليصبحوا مزارعين في الحقول الرومانية ، أو ليخدموا جنوداً في الجيش الامبراطوري. وفي حالات كثيرة سمح لقبيلة بكاملها باجتياز الحدود والاستيطان ضمن حدود الامبراطورية كحليفة ، وقد انيطت بها مهمة الدفاع عن الحدود . في المنطقة التي استقرت فيها ضد بقية القبائل الجرمانية واعتبرت حليفه.

وقبل سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب بوقت طويل ، صارت الفرق الرومانية مكونة معظمها من جنود جرمان وكان أولئك الجنود يكنون الكثير من الاخلاص والولاء للامبراطور والاحترام للامبراطورية . وشاركهم هذا أولئك الجرمان الذين لم يسعفهم اجتياز حدود الامبراطورية وفي العيش في كنفها . لقد كانت الامبراطورية الرومانية والأرض الرومانية جزءا جميلا من العالم الذي يعرفه الجرمان ويعجبون به. ان مؤسساتها ومدنها الجميلة وحقولها الخصبة تفوق ما سواها مما يعرفون. ولم تكن طموحاتهم تتعدى ان يصبحوا جزءا منها ، مستقرين بصورة سلمية ضمن حدودها ولم تكن لدى الزعماء والقادة الجرمان امنية اعلى من ان يكون لهم شرف في الخدمة في جيش الامبراطور وتحت قيادته. والخلاصة ان شعور الاحترام للامبراطورية والامبراطور كان عميقا عند الشعوب الجرمانية . وقد بقى كذلك حتى بعد سقوط الأمبراطورية .

وما ان حلت نهاية القرن الرابع الا وكان هناك عدد كبير من الجرمان قد اجتازوا الحدود الرومانية بصورة سلمية واستقروا ضمن حدود الامبراطورية . كما وكان هناك عدد اكبر ينتظر الفرصة المواتة للقيام بمثل هذا الاجتياز. ولعله كان من المحتمل استمرار عملية التسلل السلمي هذه الى ما لا نهاية دون عنف ، ولكن حدث امران غيرا هذا الاتجاه و بدلا الطبيعة السلمية للعلاقات بين الرومان والجرمان . وأول هذين الحديثين الضغط الذي تعرضت له القبائل الجرمانية نفسها من جراء زحف قبائل الهون الاسيوية نحو اراضيها الأمر الذى اضطرها الي التوغل

في الاراضي الرومانية وثانيهما تزايد ضعف الامبراطورية الرومانية وافتضاح امر هذا الضعف امام القبائل الجرمانية الامر الذي شجعها على الاستفادة من هذه الفرصة المتاحة امامها.

المحاضرة السادسة

(قبائل الهون – اصولها وتحركاتها نحو الغرب)

وهي من القبائل الاسيوية التي كانت تسكن منطقة السهوب الاسيوية بين جبال الطاي والاورال . ويتميز الهون عن الجرمان والرومان برؤوسهم المستديرة وانوفهم المسطحة وعيونهم الغائرة وشعرهم الداكن الاسود . وكانوا يعتمدون على الرعي في معيشتهم ، يتبعون العشب جنوبا في الشتاء ، وشمالا في الصيف، وتمتد مناطق تجوالهم مسافة الف ميل احيانا. والهون ماهرون جدا في ركوب الخيل وفي القتال والطعن من على ظهورها. وقد أكسبهم ذلك تفوقا على خصومهم ولما كانت معيشة الهون تعتمد على الرعي فإنها كانت مهددة بالجفاف من وقت لآخر ومتى ما فشلت مراعيهم فى سد حاجاتهم اندفع الهون بسرعة وعنف في مهاجمة من يجاورهم من الشعوب . وكانت مهارتهم المنقطعة النظير في ركوب الخيل وقدرتهم الفائقة على تحمل المشاق والجوع والعطش خير معين لهم لتحقيق ما يبتغون واغلب الظن ان اواسط آسيا عانت فترة من الجفاف طويلة امتدت على مدى اربعة قرون ، من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد .

بدأ الهون تحركهم من مناطقهم الاصلية في منتصف القرن الأول قبل الميلاد متجهين في بداية الأمر نحو الحدود الصينية ، ولكن قدرة اباطرة الاسرة الهانية في الصين ، وقوة الاستحكامات الممتدة من اطراف شمال الصين الى تركستان الشرقية ، دفعت الهون بعيدا وانقذت الصين من دمار محتم . وبفشل محاولاتهم للتقدم شرقا تحولت قبائل الهون نحو الغرب. فتوغلت في روسيا ، واستمرت عملية هذا التوغل طيلة القرنين الاول والثاني للميلاد . وما ان حل القرن الثالث الا وكانت قبائل الهون قد اتمت طرد شعوب السارمايتين سكان السهوب في جنوب روسيا ووصلت جحافل الهون الى اوربا في القرن الرابع فاكتسحوا مملكة الغوط الشرقيين في جنوب روسيا واخضعوا قبائلها لهيمنتهم سنين طويلة . ثم واصل الهون زحفهم غربا وهاجموا الغوط الغربيين والوندال ، الأمر الذي دفع هؤلاء الى الفرار والاحتماء بحدود الامبراطورية الرومانية . وقد فجر هذا الزحف الاخير الأزمة بين الغوط الغربيين والامبراطورية الرومانية .

معركة ادرنة واهميتها :

لجأ الغوط الغربيون عام ٣٧٦ الى الحدود الرومانية ملتمسين من الامبراطور فالانز السماح لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار في الارض الرومانية . واستجاب الامبراطور لطلب الغوط الغربيين وسمح لهم بالعبور ، وربما

كان يرى ان هذا في صالح الامبراطورية حيث انهم سيكونون حاجزا بينها وبين قبائل الهون في حالة استمرار تقدم هذه القبائل باتجاه الغرب. واستقر الغوط الغربيون في دالماشيا وتراقيا. وسرعان ما نشب خلاف بينهم وبين

الموظفين الرومانيين ، الذين تعسفوا في معاملتهم ، واحتجز وا عنهم المواد الغذائية ، وفرضوا قيودا على تحركاتهم . وتطور الخلاف الى حرب سافرة . واسرع الامبراطور فالانز على رأس قوة لم تعد اعدادا ملائما لمواجهة الموقف وتأديب الغوط الغربيين. وحدثت معركة ادرنة عام ٣٧٨ هزم فيها الرومان هزيمة ساحقة وقتل فيها الامبراطور نفسه.

وتمثل معركة ادرنة أول انتصار كبير حققه الجرمان على الجيش الرومان وقد اظهرت المعركة تفوق سلاح الفرسان السريع الحركة ، والذي كان الاساس في جيش الغوط الغربيين على سلاح فرق المشاة الرومانية. ولم يغادر الغوط الغربيون الأرض الرومانية بعد هذه المعركة ، كما واخذ الجرمان بشكل عام منذ هذا التاريخ يقيمون ممالكهم ضمن حدود الامبراطورية .

واختلف المؤرخون في تقديرهم لاهمية معركة ادرنة . فقد اعتبرها البعض من المعارك الحاسمة في التاريخ وقال عنها انها نقطة تحول في تاريخ الامبراطورية الرومانية والشعوب الجرمانية على حد سواء . وذهب فريق الى اعتبار سنة ٣٧٨ م نهاية المعصور القديمة وبداية للعصور الوسطى ومن هؤلاء المؤرخ المعاصر اميانوس مارسلينوس. في حين يرى البعض الآخر من المؤرخين ان معركة ادرنة لا تعدو ان تكون تمردا للجيش الغوطي الذي هو في الواقع جزء من الجيش الروماني . اضف الى هذا ان اثار الهزيمة كان مقدرا لها ان تزول في عهد امبراطور قوى وحكيم ومن حسن حظ الامبراطورية الرومانية أن الامبراطور ثيودوسيوس الاول ٣٧٩ – ٣٩٥ ، الذي خلف الامبراطور القتيل ، كان ممن تتوفر فيهم هذه الصفات فقد عقد هذا الامبراطور اتفاقية جديدة مع الغوط الغربيين سمح لهم بمقتضاها بالبقاء في الارض الرومانية كحلفاء (Foederati) وعفاهم من الضرائب وتعهدوا له مقابل هذا بالخدمة في الجيش الروماني . ولكن ثيودوسيوس كان آخر الأباطرة الاقوياء وقد خلفه ولداه الضعيفان هونوريوس الذي حكم الاقاليم الغربية من الامبراطورية ، واركاديوس الذي حكم الاقاليم الشرقية منها . وكان الغوط الغربيون قد جددوا تمردهم على السلطة الرومانية وقد اغراهم ضعف الامبراطورية بذلك . ولم يتورع ملكهم الاريك (Alaric) عن مهاجمة ايطاليا.

الغوط الغربيون ومملكتهم :

عاش الغوط الغربيون في الارض الرومانية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس كحلفاء للامبراطورية (FoedcRaTi) وقد اطلق على ثيودسيوس من جراء ذلك لقب صديق الغوط ولكن الغوط استغلوا ضعف ابنه هونوريوس فعادوا الى مهاجمة الاقاليم الرومانية وكانوا هذه المرة تحت قيادة ملكهم الاريك (AlaRIC) وحاصرت جيوش الامبراطورية الشرقية والغربية قوات الاريك في البلقان وكادت ان تستأصلها ولكن امبراطور الشرق الضعيف اركاديوس ارسل اوامره الى القادة بالانسحاب والعودة الى القسطنطينية وايطاليا دون الحاق اي ضرر بالغوط الذين سماهم اصدقاء الامبراطورية المخلصين. وما ان اطمأن الاريك الى وضعه حتى جدد تهديده للامبراطورية ، واتجه هذه المرة الى ايطاليا نفسها . وتهيأ للرومان في هذا الوقت قائد جرماني مخلص و قدير

هو ستيليكو الذي استطاع ان يدحر الاريك عند بولنتيا عام ٤٠٢ ، وعند فيرونا وقد دخل هذه المدينة لاول مرة في عام ٤٠٣ حيث كان قبل ذلك مقيما في رافينا نظرا لانها محاطة بالمستنقعات ولقربها من البحر ، الأمر الذي يوفر الحماية لها في وجه تهديدات الغوط الغربيين .

وفي هذه الظروف ، حيث كانت الحكومة الرومانية بحاجة الى المزيد من القوات للدفاع عن ايطاليا اضطرت الى سحب قواتها من بلاد الغال و من بريطانيا واسبانيا الامر الذي كشف حدود هذه الاقاليم امام القبائل الجرمانية وبعد عام ٤٠٦ بفترة قصيرة اكتسحت القبائل الجرمانية بلاد الغال واسبانيا وشمال افريقيا . وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية في الغرب تتداعي بسرعة . وفي هذا الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية بأمس الحاجة الى خدمات القائد ستيليكو اوغر الحاسدون والواشون صدر الامبراطور هونوريوس عليه فاعدمه . ولم يكتف بهذا بل نكل بجميع اتباعه واعوانه الامر الذي دفع بالكثيرين منهم الى اللجوء الى الاريك للاحتماء به. واستغل الاريك فرصة غياب ستيليكو عن الميدان فتقدم الى روما بعد شهرين فقط من مقتل ستيليكو . وضرب الاريك الحصار على المدينة في عام ٤٠٨ و عزم على امامتتها جوعا ، لاجبارها على التسليم. واخيرا قبل رفع الحصار عنها بعد ان دفعت له مبالغ كبيرة من المال ذهبا وفضة واطنانا من التوابل . وفي عام ٤١٠ اعاد الاريك حصار روما . وفي ليلة ٢٤ آب عام ٤١٠ فتحت له ابواب المدينة فدخلها واستباحها لمدة ثلاثة ايام. وقد هز هذا الحادث العالم الروماني ومع ان الخراب الذي لحق بروما من جراء هذا الاحتلال لم يكن جسيما ، وان احتلالها كان ضربة عنيفة لمعنويات الرومان ولكرامتهم. وقاد الاريك قومه بعد ذلك نحو الجنوب يريد عبور البحر الى افريقيا ، مخرباً في طريقه الى صقليا كل شي . واخيرا عندما وصل البحر حطمت عاصفة هوجاء

اسطوله فاضطر على العودة الى الشمال و مات فجأة في اواخر عام ٤١٠ . ودفن في فعر احد الانهر مع جزء من خزائنه وقتل اتباعه جميعا العبيد الذين اشتركوا في عملية الدفن كي يبقى القبر مجهولا ويحتفظ بسرية الموقع.

وخلف الاريك اخوه اثولف (Athulf) فاراد ان يجد موطنا لقومه بلاد الغال . وكان الوندال والسوفي قد سبقوه اليها وعاثوا فيها فسادا . وكانت الفوضى سائدا والعصابات من مختلف الانواع منتشرة في كل مكان. واتجه اثولف جنوبا فاحتل طولوز وبوردو. ودفعت المجاعة في بلاد الغال الغوط الغربيين إلى الذهاب الى اسبانيا واغتيل اثولف عام ٤١٥ وجاء بعده (وله) " .wallia " وأراد هذا عبــور البحر الى أفريقيا و لكن أسطوله تحطم في قادش واستأصل (وله) جيش الوندال في اسبانيا وحصر الوندال في جزء ضيق يقع في الشمال الغربي من هذه البلاد . وأخيراً أستقر الغوط الغربيون في منطقة اوكتين من بلاد الغال وامتدت منطقة نفوذهم من طولوز حتى المحيط الأطلسي ، وسكناهم في هذا الموقع جعلهم يعيشون بين أكثرية السكان الغاليين والرومان. وقد تأثروا بالحضارة الرومانية ، فأسسوا لهم نظاما ادارياً على غرار النظام الروماني . ثم اكتسحوا أسبانيا مرة أخرى ، ودحروا الوندال ، فاضطر هؤلاء الى مغادرة أسبانيا عام ٤٣٩ الى شمال أفريقيا.

وبلغت قوة الغوط الغربيين أقصاها في عهد ملكهم أرك (Euric) ، وكان هناك احتمال لأزدهار هذه الدولة ولأستمرارها. وقد شيد أرك له بلاطاً فخماً في طولوز على غرار بلاط الاباطرة الرومان . واعترف به الفرنجة والبرغنديون والسكسون وفي عهده وضعت أقدم القوانين الجرمانية المدونة. وتميز الغوط الغربيون بتعصبهم الشديد للاريوسية الأمر الذي أثار سخط المسيحيين الكاثوليكيين وحقدهم. وتوفى ارك عام ٤٨٥ و بعد وفاته بجيل واحد فقط تمزقت دولة الغوط الغربيين واستولى الفرنجة على اوكتين عام ٥٠٧ وانتزع منهم الغوط الشرقيون منطقة بروفنس . وبقى نفوذهم في أسبانيا الى عام ٧١١ حيث انتزعها منهم العرب المسلمون .

الوندال :

عبرت قبائل الوندال نهر الراين عام ٤٠٦ متوجهة الى بلاد الغال . ولكن ضغط الفرنجة هنا دفعهم للتوجه الى اسبانيا ولكنهم دحروا هنا على يد الغوط الغربيين فتوجهوا الى افريقيا عام ٤٢٩ .

وكانت ظروف شمال أفريقيا مشجعة للوندال . فقد كانت الفوضى ضارية أطنابها في أقاليمها والخلافات مستحكمة بين حكامها الرومان والثورات مستمرة . وقد دعا أحد الثوار ملك الوندال الكفوء جزريك (Gaisric) لغزو أسبانيا فلبى الدعوة في الحال . وعبر من أسبانيا الى شمال أفريقيا عام ٤٣٩ وكان عدد الوندال عند ذاك

ثمانين الف نفس منهم خمسة عشر ألف محارب . واعترف الامبراطور الروماني في عام ٤٣٥ بسيطرة الوندال على جزء مهم من شمال أفريقيا مشترطاً دفع جزريك مبلغاً سنوياً من المال من باب الاعتراف بالسيادة .

وتجاهل جزريك هذا الشرط ، بل انه تقدم الى قرطاجنة فاحتلها . وكان الوندال في هذا الوقت قد كونوا لهم اسطولاً قوياً فرض نوعاً من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط وعلى اجزاء مهمة من سواحله . وعقد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في عام ٤٤٢ معاهدة اخرى مع الوندال اعترف له بموجبها بالسيطرة على اغنى المناطق ولم يبق للرومان سوى المناطق الداخلية الفقيرة الجرداء. وفاق الوندال الشعوب الجرمانية الاخرى في القسوة والعنف في معاملة السكان الخاضعين لهم . وقد صار اسمهم مرادفاً للظلم والتعسف عند الكثير من الشعوب الأوربية خلال العصور الوسطى .

ولم يكتف الوندال بما حصلوا عليه من شمال أفريقيا بل دفعتهم أطماعهم من جهة والاوضاع التي كانت سائدة في ايطاليا من جهة أخرى الى عبور البحر ومهاجمة روما فقد قتل ما كسموس (Maximus) الامبراطور فالنتين الثالث : ((Valen)(tilan)) وفرض نفسه امبراطور على روما وأجبر ارملة الامبراطور القتيل (Edoxia) على الزواج منه ، وقرر أن يزوج أبنه من ابنتها . فاستنجدت الارملة بجزريك ، وتوجه هذا باسطوله القوي ونزل ايطاليا وزحف على روما ولم يواجه مقاومه تذكر . وضرب الحصار على المدينة وحاول البابا ليو الأول التوسط ولم ينجح الا في الحصول على وعد من جزريك بعدم لجوئه الى القتل والحرق عند احتلاله المدينة . وسقطت روما بيد الوندال عام ٤٥٥ وقد الحق بها هؤلاء من الخراب والدمار ما فاق كثيرا الخراب الذي الحقه بها الغوط الغربون عام ٤١٠ وواصل الوندال فتوحاتهم فاحتلو صقليا وسردينا وكورسيكا وفرضوا سيطرتهم على البحر الابيض المتوسط . وفي عام ٤٧٦ ، اي قبل عام واحد من وفاة جزريك ، اعترف الأمبراطور الشرقي بكل فتوحات الوندال وعقد صلحاً معهم ولكن السلام لم يعد الى أفريقيا الا بعد فتوحات جستنيان عام ٥٣٤.

وضعفت دولة الوندال كثيرا بعد موت جزريك. وجاء الى الحكم بعده ((هلدريك)) (hilderic) وكان هذا رومانيا أكثر منه جرمانياً حيث كان قد تربى في بيئة رومانية واعتنق الكثلكة . وثار عليه أحد أقربائه غلمر وعزله عام ٥٢٣ . واتخذ جستنيان هذا مبرراً لمهاجمة شمال أفريقيا واحتلالها عام ٥٣٤ ، فدحر غلمر وأسره .

تجدد خطر الهون – اتيلا يغزو ايطاليا :

وتجدد خطر الهون على اوربا بعد أن أصبح اتيلا (Attila) ملكا عليهم وكان هذا ملكا كفؤا ولكنه كان مخيفا ومرعباً . وقد أطلق عليه معاصروه نقمه الله غزا اتيلا بلاد البلقان واجبر امبراطور القسطنطينية على دفع ضريبة له. وفي عام ٤٥١ وصل اتيلا بلاد الغال. وتحالفت الشعوب الجرمانية والرومان محاولة وقف تقدمه وحالفهم

الحظ فدحر اتيلا عند شالون سنة ٤٥١ واتجه اتيلا بعد هذه الهزيمة نحو ايطاليا حيث خرج ليو الكبير واقنعه بالعدول عن مهاجمة روما . وتوفى اتيلا في عام ٤٥٣ وانهارت مملكته ورجع قومه الى اسيا.

نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب :

حوالي منتصف القرن الخامس كانت الامبراطورية الرومانية في الغرب قد فقدت معظم اقاليمها في اوربا وشمال افريقيا . ولعل خروج البابا ، وعدم خروج الامبراطور ، لمقابلة اتيلا يوفر الدليل لفقدان الحكومة الامبراطورية منزلتها السابقة وهيبتها ، والسنوات الأخيرة من حياتها تميزت باعتلاء عدد من الاباطرة الضعاف لعرشها . ولم يكن لاولئك الاباطرة من السلطة سوى الاسم ، فقد انحصرت السلطة الفعلية بيد قادة الجيش الجرماني. وجات النهاية في عام ٤٧٦ . حيث قام احد القادة الجرمان اود واكر ، الذي كانت له الهيمنة على روما ، بعزل الامبراطور (رومولس اوغسطولس) ونفيه الى جنوب ايطاليا دون ان يعين خلفا له ، وارسل شارة الامبراطورية الى القسطنطينية.

المحاضرة السابعة

(البابوية)

ظهورها وتطورها

منذ ايام المسيحية الأولى ، ظهر تنظيم ديني متميز عرف بالكنيسة (Eccclesia) وعرف أولئك الذين يديرون ذلك التنظيم ويشرفون على اداء الطقوس والشعائر الدينية برجال الدين (الاكليرس) تمييزا لهم عن عامة المسيحيين . وكان تلامذة السيد المسيح الأوائل (الحواريون) الاثنا عشر ، بطبيعة الحال ، هم الاساس لفئة الاكليرس وصار خلفاء الحواريين يعرفون بالاساقفة (efiscopi) ولما كانت الجماعات المسيحية الأولى تقيم في المدن ، فقد صارت المدينة هي المقر للاسقف . ويشرف الاسقف على الشؤون الكنسية والدينية في المدينة التي يقيم فيها . واطلق على الوحدة الادارية الدينية التي يشرف عليها الاسقف اسم (الاسقفية) (diocese)

وما يوجد من كنائس في نطاق كل اسقفية يشرف عليها ما يعرفون بالقسس (Priests) ويساعد القسس في ادارة مهام كنائسهم فريق آخر من رجال الدين يعرفون بالشمامة (deacons) وهؤلاء لا يقومون بممارسة الطقوس والشعائر الدينية ولكنهم يتولون امورا وخدمات اخرى مثل تنظيف الكنائس وتوزيع الهبات .

وتمتعت المدن التي قام الحواريون بتأسيس كنائسها بمنزلة خاصة في العالم المسيحي . وتأتي روما في المقدمة في هذا المجال. فقد فاقت هذه المدينة ما سواها سمواً ورفعة . وكان لذلك اسباب عدة منها ان كلا من القديس بطرس والقديس بولص قد شرفا المدينة بزيارتهما لها . والاول قام بتشييد كنيستها الاولى وتقول الروايات المسيحية ان هذين القديسين قد استشهدوا فيها . كما ان هناك اشارة في الكتاب المقدس (انجيل متي ، الاصحاح السادس عشر) الى ان السيد المسيح قد اشار الى القديس بطرس كرئيس للحواريين . والاساقفة هم خلفاء الحواريين فمن الطبيعي ان يكون اسقف روما ، وهو خليفة القديس بطرس ، رئيسا لبقية الأساقفة .

وبعد اخذ تلك الجوانب والروايات الدينية بنظر الاعتبار فقد كان للجوانب السياسية والواقعية ايضا دور مهم في رفع منزلة روما الى تلك الدرجة السامية . فقد كانت روما عند ظهور المسيحية وعند بدء انتشارها . العاصمة الوحيدة للامبراطورية الرومانية العظيمة المترامية ، بل كانت اهم واكبر واغنى مدينة في العالم اجمع.

البابوية في عهودها الأولى – عهد الاضطهاد

وظهر هذا الاحساس بعلو منزلة اسقف روما واضحا منذ عهود المسيحية الأولى ، بل وفي عهد اضطهاد المسيحيين ، فاسقف روما القديس كلمنت الاول (100 – 91) يتدخل في شؤون اسقفية كورنته تدخل صاحب السلطان العام وتدل الرسالة الاولى التي وجهها كلمنت الى الكورنثيين (عام ٩٦ م) دلالة واضحة على الشعور بالسيادة والزعامة . اذ يقول القديس كلمنت فيها ان النظام هو القانون الكوني ، وكما انه اساس الطبيعة الظاهر للعيان ، فهو كذلك اساس المجتمع المسيحي وينبغي على المؤمنين الالتزام بالنظام والطاعة لمن هم اعلى منهم مرتبة . وكما ان المسيح جاء من الله ، جاء الحواريون من المسيح ، وهؤلاء بدورهم عينوا اتباعهم الأولين من بعدهم ليكونوا اساقفة وقساوسة للمسيحيين ومن هذا يصبح ضروريا ان تتجنب كنيسة كرنثة التنازع وان تخضع لرجال الكنيسة المعينين بموجب القواعد المرعية ، لانهم يمثلون المثل المسيحية والسلطة الالهية الصحيحة. وفي منتصف القرن الثالث تحدى بعض الاساقفة في شمال افريقيا سلطة اسقف روما وسيادته ، فما كان من اسقف قرطاجنة الا واصدر في عام ٢٥٨ رسالة بعنوان حول وحدة الكنيسة اكد فيها ضرورة الاعتراف بسيادة اسقف روما ، وضرورة وحدة الكنيسة . فالكنيسة كما قال يجب ان تكون كاثوليكية – ومعنى كاثوليكية عالمية شاملة – والواقع انه حتى تلك الأيام الغابرة كان هناك شبه اجماع بين المسيحيين عن وحدة الكنيسة . ولا تكون الكنيسة موحدة دون ان تكون لها سلطة عليا واحدة تستطيع تجسيد الوحدة وتوجيهها.

البابوية خلال القرنين الرابع والخامس

لعل اهم التطورات بالنسبة للكنيسة المسيحية خلال فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية هو ارتفاع منزلة اسقف روما (وقد صار يعرف منذ القرن الرابع بالبابا) في المجالين الديني والدنيوي. لقد لاحظنا سمو منزلة خلفاء القديس بطرس على غيرهم من الاساقفة في عهد الاضطهاد ، اما بعد ذلك وفي فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية وضعفها ، فقد احتفظ البابا بتلك المنزلة السامية ، بل ان سيادته على بقية الاساقفة ، قد نمت وتبلورت واصبحت امرا ثابتا ومعترفا به من الجميع . وتبدو السيادة البابوية واضحة في كثير من المجالات. منها الاجراءات التي اتخذت لمناهضة الهرطقة . فمع ان اغلب الحركات الهرطقية في عهد المسيحية الأولى قد ظهرت في الشرق (كالاريوسية والمنو فستية) وهي على هذا الاساس تمثل مشكلات للاساقفة الشرقيين بالدرجة الاولى : ومع ان المجاميع الدينية العامة السبعة الاولى عقدت كلها في الشرق ، فقد لعبت روما دورا قياديا في تلك المجامع التي قامت بدور مهم في تعريف العقيدة الكاثولوكية و في تحديد مضامينها . ففي مجمع (نيقية

Nicoca ٣٢٥) اخذ بتفسير روما لطبيعة الاب والابن وكان قد حضر المجمع قسيسان يمثلان البابا ومن المرجح ان يكون هو سيوس اسقف قرطبة الذي ترأس معظم جلسات المجمع هو الآخر مندوبا للبابا ايضا.

وفي مجمع خلقدونيا عام ٤٦١ ، عندما عجز الاساقفة المجتمعون عن التوصل الى اتفاق يرضي الجميع ، اصدر البابا ليو الاول رسالته الشهيرة ألرساله Tome التي انهت الجدل بتأكيدها العقيدة القائلة بان للسيد المسيح طبيعتين بشرية وسماوية ضمتهما شخصية قدسية واحدة وبهذا انكر على المنوفستين عقيدتهم القائلة .

الطبيعة الالهية الواحدة للسيد المسيح . وهكذا اثبتت البابوية زعامتها مره اخرى.

وفي المجال الاداري ، يلاحظ ان روما نجحت هنا ايضا في فرض نوع من السيادة الادارية على بقية الكنائس ، علما بان الفوضى السياسية التي سادت الغرب في القرنين الخامس والسادس ، حالت دون ظهور السيادة وتبلورها بشكل واضح .اذ ان انعدام الاستقرار وصعوبة المواصلات حالا دون الاتصال بين روما وبقية الكنائس في اوربا . فبعد تلك الوحدة السياسية المتماسكة التي كانت تتمتع بها اوربا في ظل الامبراطورية الرومانية ظهرت هناك بعد سقوط روما خمس دول جرمانية ، ولفترة من الزمن كانت اربع منها يحكمها حكام يؤمنون بالعقيدة الاريوسية ، والاكثر من هذا ، فان الاساقفة الذين كانوا ينتخبون عادة من قبل رجال الدين وسكان المدينة صاروا الآن ، خلال القرنين السادس والسابع، غالبا ما يعينون من قبل الملوك الجرمان وفي ظروف كهذه من الصعب بطبيعة الحال ظهور سلطة بابوية ادارية فعالة يمارسها البابا على بقية الكنائس في الغرب . ومع هذا ظهرت السلطة في مجالات خاصة ، فقد احتفظت روما بشكل أو بآخر بنوع من الصلة مع بقية كنائس الغرب . واعتادت تلك الكنائس الرجوع الى روما في امور معينة في مقدمتها تحديد موعد عيد الفصح ومع ما تبدو عليه هذه القضية من صغر ، فان رجوع كنائس الغرب كلها الى روما بشأنها قد اعطى مؤثرا باعتراف تلك الكنائس بزعامة روما . ثم ان المبشرين الارلنديين والسكسون الذين قاموا بجهود متميزة في نشر العقيدة الكاثوليكية خلال القرنين الخامس والسادس بين الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية في القارة الاوربية كانوا على صلة بالبابا ، بل انه هو الذي شجع معظمهم للقيام بذلك التبشير ، وهذا مظهر آخر من مظاهر زعامة روما والبابوية.

ولا يقل دور البابوات في التشريع الكنسي عما ذكر اهمية فقد اعتاد البابا خلال تلك الحقبة من الزمن اصدار التشريعات البابوية (decretals) وصارت تلك التشريعات والاوامر البابوية مصدرا مهما من مصادر القانون الكنسي (Con on Law) متممة بذلك تشريعات واوامر المجامع الكنسية.

علاقة البابا بالقسطنطينية

مما لا شك فيه ان الاهمية السياسية والاقتصادية لاية مدينة مسيحية كانت تحدد مكانتها الدينية . وعلى هذا الاساس احتلت العاصمة الجديدة القسطنطينية منزلة بالغة الأهمية من الناحية الدينية ، علما انها مدينة جديدة لم تكن قد شرفها احد الحواريين بزيارته لها ولم يقم احد منهم بتأسيس اسقفيتها .

على اية حال فقد وضعها مجمع القسطنطينية الديني العام ٣٨١ في المقام الثاني بعد روما ، وأوجد المبرر الشرعي لذلك ، حيث قرر ان القسطنطينية هي روما الجديدة . وفي الوقت الذي اعترف فيه بطريق القسطنطينية بسيادة اسقف روما ، خليفة القديس بطرس ، فانه ادعى لنفسه ، في الوقت ذاته ، السيادة على جميع كنائس الشرق . واعترفت الكنائس الشرقية بسيادة القسطنطينية عليها . ولم تواجه القسطنطينية تحديا في ذلك سوى من كنيسة الاسكندرية وذلك ان مصر تمتعت دائما بمنزلة فريدة في الامبراطورية الرومانية وصلت الى حد الاستقلال الذاتي . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان جهود الاسكندرية بقيادة (اثناسيوس Athanasius) في محاربة الاريوسية زاد من مكانتها وهيبتها . ومع كل هذا فما ان حل القرن الخامس الا وثبتت القسطنطينية سيادتها الكاملة على الكنائس الشرقية كلها. وهكذا فان سيادة البابا على الكنائس الشرقية ، كانت سيادة غير مباشرة جات عن طريق سيادته على بطريق القسطنطينية . ولم يكن هذا بدوره مستقلا وذلك بسبب تدخل الحكومة الامبراطورية المستمر في شؤونه ، حتى في القضايا الدينية البحتة . والعلاقة بين البابا والامبراطورية لها اهمية بالغة في التاريخ الأوربي في تلك المرحلة . فالخلافات بين رئيس السلطة الدينية ورئيس السلطة الزمنية كانت قد ظهرت منذ الايام الاولى من الاعتراف بالمسيحية . اذ سرعان ما وجدت الكنيسة ان تحمس الاباطرة للدين الجديد وحمايتهم للكنيسة لم يكن يخلو من متاعب . لقد اجتمع مجمع نيقية الديني العام بدعوة من الامبراطور قسطنطين ، وهو الذي قرر بنفسه جدول المسائل التي نوقشت فيه ، وصادق على قراراته. واعتبر جستنيان نفسه الرئيس الاعلى للكنيسة ، ومن حسن حظ الكنيسة ان جستنيان بالذات كان غيورا على الكنيسة متحمسا لوحدتها ، ولذا نراه لا يبخل " البابا بتأييده المطلق ، ومع كل هذا وحتى بالنسبة الى هذا الامبراطور الصديق، بان العلاقات بينه وبين البابا لم تكن تخلو من البرود والتوتر في بعض الاحيان خاصة عندما حاول الامبراطور مهادنة الهراطقة الاريوسيين وغيرهم. والواقع ان البابا (فجليوس كان سجينا في القسطنطينية لعدة سنوات بسبب خلافاته مع الامبراطور جستنيان. وعندما اعيدت سلطة الامبراطور البيزنطي الى ايطاليا نتيجة لفتوحات جستنيان استمرت الخلافات بل تفاقمت . والحقيقة ان الاباطرة البيزنطيين كانوا يحسدون البابا ويحاولون الحد من نفوذه بكل الوسائل الممكنة لديهم . من ذلك تحريضهم اسقف رافينا وبقية الاساقفة وتشجيعهم على تحدى سلطانة . كما شجعوا

بعض الهراطقة وبخاصة المنوفستيين . وعندما لم يجد كل ذلك نفعا لجأوا الى تعزيز موقف بطريق القسطنطينية ودفعه الى تحدى البابا ومعاداته .

وتطور خلاف خطير بين روما والقسطنطينية في اوائل القرن الثامن ، وكان لظهور الاسلام صلة بذلك فقد عاب المسلمون على المسيحيين تعلقهم بالصور والتماثيل وافراطهم في تكريم القديسيين الى درجة بلغت حد العبادة . فظهرت اتجاهات جديدة لدى المسيحيين في الشرق ، تهدف الى الحد من التعلق بالصور والتماثيل والاعتدال في تكريم القديسيين وعرف دعاة هذا الاتجاه بمحظمي التماثيل والصور (اللا ايقونيين) ونال هؤلاء تأييد بعض الاباطرة خاصة ليو الايسورى (٧١٤ – ٧٤١) . لقد نشات ازمة دينية خطيرة ، فالكنيسة الشرقية نفسها انقسمت و نشب صراع بين الايقونيين واللا ايقونيين . وبينما نال الاخيرون تأييد الامبراطور ، حظي الايقونيون بمساندة بطريق القسطنطينية ، ولم يستمر الصراع طويلا فقد انتصر الايقونيون وخرجوا ظافرين. ومع ان الحركة اللا ايقونية لم تؤثر بشكل مباشر في الكنيسة الغربية فان البابا بصفته الرئيس الأعلى للكنيسة المسيحية كلها وقف الى جانب بطريق القسطنطينية ودافع بحماس عن احترام القديسين ودعا الى الابقاء على الصور والتماثيل وعلى اية حال فان سياسة ليو الايسوري ادت الى توتر خطير في العلاقات بين البابا والامبراطور.

فان البابا غريغوري الثاني (٧١٥ – ٧٣١) تحدى ليو الثالث الايسوري (٧١٧ – ٧٤٠) وشجع الايطاليين على تجاهل قراراته. وقد تركت المشكلة اثارها في توتر العلاقات بين شقي العالم المسيحي لقرون عديدة لاحقة. والانفصال السياسي بين الاقاليم الشرقية والاقاليم الغربية ادى بصورة تدريجية الى نوع من الانفصال الديني كذلك . والحقيقة كانت هناك خلافات عقائدي وغير عقائدية منذ البداية بين المسيحيين في الشرق والمسيحيين الغربيين ، فقد كان المسيحيون في الشرق يستعملون اللغة الاغريقية في اداء المراسيم الدينية ، بينما استعمل المسيحيون الغربيون اللغة اللاتينية في تلك المراسيم . ثم ان الرقي الثقافي والرخاء الاقتصادي في الشرق دفع السكان الى اعتبار الغرب متوحشا ومتخلفا . رفض عدد من بطارقة القسطنطينية الخضوع لروما المدينة المهجورة والفقيرة وهم يعيشون في تلك المدن الشرقية العامرة بالسكان والمرفهة اقتصاديا . وهكذا يلاحظ انه على الرغم من احتجاجات البابا المستمرة استعمل بطريق القسطنطينية لقب البطريق العام.

وفي خلال القرنين السابع والثامن اتسعت الشقة بين القسطنطينية وروما . ومع هذا وعلى الرغم من التباين الاقتصادي والثقافي ، استمرت وحدة الكنيسة المسيحية وقد حدث هذا الانفصال في وقت لاحق . والحقيقة كان هناك ما لا يقل عن ستة بابوات من اصل شرقي بين عام (٦٥٠ – ٧٥٠) ولكن في هذه الفترة ايضا تعرضت

سيادة البابا على القسطنطينية المعوقات كثيرة منها زيادة الفروق الثقافية والاقتصادية بين الشرق والغرب ، وطموح بعض بطارقة القسطنطينية ورغبتهم في الاستقلال عن روما ، وتدخل الاباطرة المستمر في الشؤون الدينية .

المسؤليات الجديدة للبابوية :

صحب اعتراف الحكومة الامبراطورية بالمسيحية زيادة كبيرة في الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتق البابا والاساقفة . فقد دخل الناس في الدين الجديد افرادا وافواجا. يحدو اغلبهم الامل في الاستفادة من الوضع الجديد ، اكثر ما يحدوهم الايمان والعقيدة . على اية حال كان الامر يتطلب زيادة في بناء الكنائس وفي تقديم المواعظ والارشاد . وانهالت الهبات على الكنيسة ممن يرجون الثواب ويخشون العقاب من المؤمنين . فكان على البابا والاساقفة استثمار الاموال بالشكل الافضل وتوزيع الاعانات والصدقات على المستحقين . ومنذ اوائل القرن الخامس صارت الحكومة الامبراطورية في ايطاليا شبه مشلولة ، عاجزة عن تقديم الخدمات للناس فتولت الكنيسة جزءا مهما من تلك المسؤولية فبنت المستشفيات واقامت المياتم ومارست القضاء وساعدت منكوبي الكوارث الطبيعية والحروب كالطاعون والفيضانات والقحط وضحايا غزوات الجرمان والهون . والقيام بكل هذه المسؤوليات والمهام زاد من اهمية البابا والاساقفة وعزز مكانتهم وهيبتهم . وقد صار الاسقف اهم شخص في المدينة خلال القرنين الرابع والخامس . ولعل المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها تبرر العبارة التي شاعت في تلك الفترة وهي الاساقفة الملوك. بالاضافة الى كل ما سبق فقد وضعت خلال القرنين المذكورين اسس السلطة الزمنية للبابوات ، تلك السلطة التي قدر لها ان تلعب دورا مهما خلال القرون الوسطى . فقد ترك انهيار السلطة الامبراطورية في الغرب فراغا كان لابد ان يملأ بشكل من الاشكال . ونظرا للهيبة والمنزلة الرفيعتين التي كان يتمتع بها البابوات ، فقد نظر اليهم الناس كرمز حقيقي للسلطة والحماية . فالبابا ليو الاول الكبير هو الذي خرج عام ٤٥٣ المقابلة اتيلا لاقناعه بالانصراف عن روما ، في حين لم يفعل الامبراطور شيئاً.

ومنذ ان تم الاعتراف بالديانة المسيحية عام ٣١٣ ، حصلت الكنيسة عن طريق الهبات على اراضي شاسعة بالقرب من روما ، وقد اطلق عليها اسم (اوقاف القديس بطرس) . ثم حصلت على اراضي اخرى في صقليا وسردينيا واماكن اخرى من ايطاليا . وعندما انهارت سلطة الحكومة تماما ، رأى البابا نفسه يتحمل مسؤولية الحكم في هذه المناطق . وصارت هذه الحالة اكثر وضوحاً بعد الغزوات اللمباردية حيث عمت الفوضى ولم تعد في اغلب اجزاء ايطالية سلطة حكومية من أي نوع.

المحاضرة الثامنة

(اشهر البابوات في اوائل العصور الوسطى)

البابا ليو الأول الكبير (٤٤٠ – ٤٦١) :

وظهر خلال القرن الخامس عدد من البابوات كان لهم دور هام في تعزيز مكانة البابوية وفي وضع اللبنات الأولى في صرحها الشامخ وأشهر هؤلاء البابوات هم: البابا ليو الأول الكبير. وهذا هو اول البابوات الثلاثة الذين لقبوا بهذا اللقب (الكبير) . وقد سبق ان تطرقنا الى خروجه لمواجهة اتيلا لإقناعه بالانصراف عن روما . هذا وكان لموقفه القوي والثابت في مجمع : "chalcedon "، اثر في ارغام بطريق القسطنطينية على الاعتراف بالسيادة البابوية ، ومن انجازاته الأخرى ، نجاحه في انتزاع مرسوم من الامبراطور فالنتين عام ٤٤٥ ، اعترف بموجبه بسلطة البابا القضائية العليا على جميع اساقفة الغرب. وقد طلب الامبراطور من جميع الموظفين الحكوميين التقيد بهذا المرسوم وتنفيذه.

البابا جلاسيوس الأول (٤٩٢ – ٤٩٦) :

واشتهر البابا جلاسيوس الاول بنظريته الخاصة بثنائية السلطة والتي يطلق عليها احياناً نظرية جلاسيوس . وتقول هذه النظرية بوجود سلطتين لهذا العالم احداهما دينية والثانية زمنية انهما مختلفتان ولكن مصدرهما واحد هو الله . وقد تعتمد الواحدة منهما على الاخرى ولكنهما مستقلتان . كل واحدة منهما سيدة في مجالها الخاص فالسلطة الزمنية تكون خاضعة في المجال الخاص للسلطة الدينية والعكس بالعكس. وتبدو نظرية جلاسيوس على جانب معقول من الحياد ولكن الأمر غير ذلك اذ ان السلطتين متداخلتان ولا يمكن الفصل بينهما تماما . علما بان سيطرة احدى السلطتين على الأخرى، لم يكن قد اثير عندما قال جلاسيوس بنظريته . وعندما اثير هذا الموضوع بعد قرون ، وجد انصار الكنيسة في نظرية جلاسيوس ما يؤيد ادعاء البابوية في السيادة . فقد شرح كل من يوناس الأورلياني وهنكمار الريمـــي في القرن التاسع النظرية المذكورة قائلين : ان كلا من السلطتين الزمنية والدينية داخل في حظيرة الكنيسة . وأن واجب رجل الدين يقتضيه التأكد من قيام الحاكم الدنيوي بواجبه ، وكما انه في حفل مسح الملك بالزيت المقدس يكون الماسح في مرتبة درجة فوق الممسوح، كذلك يكون رجل الدين في مرتبة فوق الحاكم الدنيوي وفقدت البابوية الكثير من نفوذها ومكانتها خلال القرن السادس ففي خضم الفوضى والغزوات فقد البابا ما كان قد حققه من مكاسب خلال القرنين الماضيين وكان البابا نفسه شريدا في بعض الاحيان معزولا في مدينته روما البائسة الفقيرة الخربة في احيان اخرى . ولكن هذا التدهور في السلطة البابوية

توقف في نهاية القرن المذكور بل وقدر للبابوية ان يرتقي عرشها في مطلع العقد الأخير من القرن السادس من هو بحق وكما وصف اب البابوية في العصور الوسطى .

البابا غريغوري الكبير (٥٩٠ – ٦٠٤) :

لعل تطور الكنيسة المسيحية في الغرب في اوائل العصور الوسطى وارتفاع مكانة البابوات وتعاظم منزلتهم . يتصل اتصالا مباشرا ووثيقا بالبابا غريغوري الكبير فهو من اعظم البابوات في تاريخ الكنيسة المسيحية على مدى العصور. وهو الذي وضع الأساس الذي شاد عليه البابوات من بعده في المجالين الديني والدنيوي خلال القرون الثالثة . ولد غريغوري في روما حوالي عام ٥٤٠ من عائلة رومانية نبيلة تميزت بالجاه والثراء. تولى في شبابه مناصب حكومية عديدة حيث عين حاكما لاحدى المدن ولكنه فضل ترك الحياة ومباهجها والدخول الى احد الاديرة ، بعد ان وهب كل ما يملك من اراضي واحجار كريمة واثاث الى الكنيسة . ومثل هذا الرجل لا يمكن ان تستغني عنه الكنيسة لتدعه يقضي حياته في الدير . فقد استدعاه البابا الى روما حيث عهد اليه بمناصب دينية رفيعة ثم انتدبه بمهمة الى القسطنطينية واختير عام ٥٩٠ ليجلس على عرش القديس بطرس . امتاز غريغوري باحترامه لسلطة الامبراطور الشرعية ، وفي الوقت نفسه تميز باعتزازه بمنصبه البابوي ، وبرفضه اخضاع هذا المنصب الى اية سلطة اخرى .

كانت ظروف ايطاليا السياسية في الوقت الذي ارتقى فيه غريغوري عرش البابوية تؤهله القيام بدور سياسي هام. فقد ازداد خطر اللومبارديين وعبثه في ايطاليا . وعندما كانت مساعدة امبراطور الشرق غير متوقعة فقد لجأ غريغوري الى طلب مساعدة الفرنجة الذين كانت قد تمت هدايتهم الى الكثلكة منذ زمن طويل وكان غريغوري قد أولى التبشير عناية خاصة ، فاخذت الكثلكة تنتشر بسرعة بين الغوط الغربيين في اسبانيا . ولعل هداية السكسون في انكلترا إلى الكثلكة من اهم انجازات حركة التبشير في هذا الوقت. ولجهو دغريغوري فضل كبير فيها . ولما كان غريغوري راهبا في طور من اطوار حياته فقد اظهر وهو على راس الكنيسة حماسا خاصا للرهبنة.

واظهر في علاقته بالبزنطيين واللومبارديين والفرنجة درجة فائقة من المهارة السياسية وقد مكنته تلك المهارة من الاحتفاظ بمقام محترم ورفيع ، كما مكنته في ذلك الجو المضطرب من الابقاء على سلامة ولاية روما التي كانت تحت ادارته ولعل خير ما يبرر حنكته السياسية موقفه من بطريق القسطنطينية عندما اصر هذا على استخدام لقب البطريق العام لقد قال له ان مثل هذا الوصف اقرب الى الخلق عبر المسيحي منه الى روح التواضع المسيحية . وقد استخدم غريغوري لنفسه هذا النعت خادم خدم الله صار هذا احد القاب البابوية منذ ذلك التاريخ

ولم يقتصر اهتمام غريغوري على النواحي الدينية والسياسية ، بل تعداها الى النواحي المالية والتجارية . فقد كان حريصا كل الحرص : في الحفاظ على موارد الكنيسة المالية ، دقيقا وحاذقا ، بشكل يثير الاعجاب، في استثمارها وتنميتها . كان يختار الاسواق الملائمة ليرسل لها المحاصيل الزراعية التي تنتجها حقول الكنيسة ومزارعها ، فيضمن بذلك الربح الوفير ولم يبخل على الفقراء والبائسين واللاجئين بجزء من اموال الكنيسة ومواردها .

واضافة الى كل ما سبق فقذ كان لغريغوري اهتمامات اخرى ، فوضع ترنيما خاصا لموسيقى الكنيسة . ووضع انشادا رسميا لها لا يزال يحمل اسمه حتى يومنا هذا . ولغريغوري مؤلفات عديدة اشهرها تلك التي يدور موضوعها حول توجيه وارشاد رجال الدين. وحول الشعائر والمراسيم الدينية ، وقصص الانبياء والقديسين . والخلاصة فان البابا غريغوري يعتبر بحق واحد من ابرز الشخصيات في تاريخ الكنيسة المسيحية و من مشيدي بنائها الشامخ .

ولا يفوتنا ، وقد تكلمنا عن البابوية ونموها في اوائل العصور الوسطى ان نذكر امورا مهمة عملت على تثبيت اسس المسيحية في تلك الحقبة القلقة من تاريخها فادت بذلك بشكل غير مباشر الى تعزيز مركز البابوية من هذه : (١) جهود من يعرفون باباء الكنيسة ونخص بالذكر منهم القديس امبروس (St. Ambrose)) عام ٣٤٠ – ٣٩٨ . والقديس جيروم (St. Jerome) عام ٤٢٠ والقديس اوغسطين (St. Augustine) ٣٥٤ – ٤٣٠ . وقد وضع هؤلاء الحجر الاساس للحياة الفكرية والثقافية للعصور الوسطى . (٢) الحركة الديرية (٣) الحركات التبشيريه . وسوف ياتي الكلام عن هذه كلها في دروس قادمة .

المحاضرة التاسعة

(الميروفنجيون)

مر معنا ان مملكة الفرنجة قسمت للمرة الثانية بين ابناء لوثر الأول الاربعة بعد وفاته عام ٥٦١ . وبرزت نتيجة لهذا التقسيم الجديد ثلاثة كيانات سياسية هي اوستراسيا ونستريا و برغنديا.

وسرعان ما نشب الصراع بين الاخوان ، وحاول كل واحد. منهم التجاوز على املاك اخوته الاخرين ، ولعبت زوجات الملوك دورا رئيسا في توجيه سياسة الملوك المورفنجيين في هذه المرحلة. وكانت كل واحدة منهن تحاول الهيمنة على شؤون زوجها الضعيف وتوجيهها بشكل يضمن مصالحها و مصالح ابنائها من دون اي اعتبار آخر، واستمر الصراع بين الملوك المورفنجيين وزوجاتهم حوالي نصف قرن وانفردت في عام ٥٩٧ برونهلد بالسلطة في اوستراسيا وبرغنديا ولكن برونهلد سرعان ما اصطدمت بمقاومة النبلاء الفرنجة . واستدعى هؤلاء النبلاء كلوتير ملك نستريا لمساعدتهم ضدها. ودارت الحرب بين النبلاء الفرنجة وكلوتير من جهة وبرونيلد من جهة اخرى . وانتهت الحرب بهزيمة الاخيرة ، وقد قتلها خصومها بطريقة متوحشة تتلائم مع طباع قومها الجرمان المتوحشين. و هكذا توحدت مملكة الفرنجة مرة اخرى على يد كلوتير ولكن هذا لم يتمتع بسلطة كبيرة في مملكته الجديدة ، وذلك لتزايد نفوذ النبلاء وارتفاع منزلتهم . والواقع ان الاحداث السياسية في مملكة الميروفنجيين لا يمكن ان تفهم الا في ضوء التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في مجتمع الفرنجة في هذه الفترة بالذات. فقد تميزت الفترة بزيادة قوة النبلاء الفرنجة واشتداد باسهم ومنافستهم للسلطة الملكية المركزية وسعيهم الحثيث للتجاوز على اختصاصاتها . والحقيقة ان انتصار كلوتير على برونهلد يمثل الى حد كبير انتصار الطبقة النبيلة وضعف السلطة المركزية والتمهيد لظهور الاقطاع وليس من الغريب ان نرى كلوتير يضطر بعد هذا النصر الى اعطاء الكثير من التنازلات للنبلاء الدينيين والعلمانيين على حد سواء

فقد اصدر كلوتير في ٦١٤ تشريعا نضمن كثيرا من الامتيازات النبلاء ، فبالنسية الى النبلاء الدينيين تعهد الملك بعدم التدخل في انتخاب الاساقفة ووسع اختصاصات المحاكم الكنسية ، وحصر محاكمة رجال الدين بتلك المحاكم ، وتعهد بعدم التجاوز على املاك الكنيسة واموالها باى شكل من الاشكال . اما بالنسبة الى النبلاء العلمانيين فقد تعهد برفع جميع الضرائب التي فرضت عليهم بطريقة غير عادلة ووعدهم بسلطات وصلاحيات اوسع في اقطاعياتهم . وهكذا حول كلوتير جزءا من السلطات الملكية الى الحكومات المحلية التي يمارس النبلاء

أنفسهم الحكم فيها. والاكثر من كل هذا اهمية ان ممثل النبلاء وزعيمهم خلال الصراع مع برونهلد والمعروف برئيس البلاط زادت سلطته كثيرا الان وصارت وظيفته وراثية بتسلمها الابناء عن الاباء.

وخلف كلوتير الملك داغوبرت (Dagobert) ٦٢٩ – ٦٣٩ وهو آخر ملك من الملوك الميروفنجيين كان له شيء من النفوذ فقد بدأ من بعده عهد جديد من حكم الملوك الذين لا يملكون من السلطة الفعلية شيئا ويوصف هؤلاء (بانهم الملوك الذين لا يعملون شيئاً) ووصفهم اينهارت مورخ شارلمان بانهم (ضعفاء البنية واحداث يتزوجون مبكرين ويموتون مبكرين ، ويعيشون حياة لا مجدية). اما السلطة الفعلية فقد انتقلت الى رؤساء البلاط وانحصر هذا المنصب في عائلة واحدة هي العائلة الكارولنجية.

الكارولنجيون – رؤساء البلاط :

ترجع اصول العائلة الكارولنجية التي انحصر في افرادها منصب رئيس البلاط الى اوستراسيا حيث الطابع الجرماني اكثر وضوحا من اي جزء من اجزاء مملكة الفرنجة . وقد لعبت هذه العائلة دورا مهما خلال الصراع مع الملكة برونهلد . وكان بين (pepin) اول من تولى منصب رئيس البلاط في هذه العائلة . واصيبت العائلة بانتكاسة بعد ببيبن عندما حاولت انتزاع السلطة نهائيا من الميروفتجبين بعزل الملك الميروفنجي وارتقاء احد افرادها العرش. فقد كانت المحاولة سابقة لاوانها فتضافرت جهود النبلاء والكنيسة لاحباط محاولة الكارولنجيين هذه. ويبد ان النبلاء والكنيسة كانوا يفضلون الابقاء على الميروفنجبين الضعفاء على سواهم من الحكام الاقوياء الذين قد يجردونهم من سلطانهم وامتيازاتهم.

واستعاد الكارولنجيون مكانتهم في عهد بيبن الثاني او ما يعرف بيبن هرتزال. فقد استطاع هذا الارتقاء الى منصب رئيس البلاط مرة اخرى. وفي عهده كرئيس للبلاط اشتد الصراع بينه كممثل للسلطة المركزية وبين النبلاء الذين كانوا يريدون اضعاف تلك السلطة وتفكيكها. والواقع ان بيبن الثاني ظهر على مسرح الاحداث في مملكة الفرنجة في الوقت الذي كانت فيه تلك المملكة على شفا الانهيار والانحلال. لقد جاء بيبن ليتم ما بدأه كلوفس واليعيد بناء الدولة وليمد حدودها ويستعيد هيبتها وكانت مملكة الفرنجة قد خسرت كثيرا من اراضيها في عهد الفوضى والحروب الداخلية . فقد خلعت اوكتين عنها نير الفرنجة وثار البافاريون والالماني واستقل حكامهم فقام بيبن بحملات متواصلة على الالماني وعلى البافاريين وعلى اوكتين واستطاع دحرهم جميعا فاعاد وحدة مملكة الفرنجة. اضافة الى هذا اخضع النبلاء وحد من النفوذ المتزايد للكنيسة.

شارل مارتل :

وكادت جهود بيبن تذهب سدى بعد وفاته ، وذلك بسبب الخلاف افراد – عائلته على وراثة منصبه. ولكن ابنه غير الشرعي والذي عرف بشارل مارتل (شارل المطرقة) قدر له ان ينقذ مملكة الفرنجة وبخلصها مما كان يحيط بها من مخاطر وان يواصل الجهود التي بدأها اسلافه في بناء مملكة الفرنجة و في بسط نفوذها على جميع الاراضي التي كانت تسكنها الشعوب الجرمانية.

وركز شارل مارتل جهوده لضم الجرمان وراء الراين. وكان القديس بونيفاس يقوم بالتبشير بين الوثنيين هناك فدعم شارل مارتل جهوده وقد اعترف البابا بجهود شارل مارتل ، انني لا استطيع أدارة شؤون الكنيسة ولا استطيع حماية القسس والشمامسة ولا الرهبان ولا الراهبات ، ولا استطيع الحيلولة دون قيام الوثنيين بممارسة طقوسهم او منعهم من عبادة اصنامهم في هذه الاصقاع دون مساعدة امير الفرنجية وحمايته.

وعلى الرغم من التعاون بين شارل مارتل والكنيسة في هذا المجال فانه لم يتردد في وضع يده على الكثير من اراضي الكنيسة وممتلكاتها ، وذلك للحد من نفوذها المتزايد من جهة ولتوفير المال اللازم الذي كانت تحتاج اليه مملكة الفرنجة لمواصلة الحرب ضد المسلمين بشكل خاص من جهة أخرى . لقد استفاد شارل مارتل من اموال الكنيسة في اسناد جيشه من الفرسان. واستطاع فعلا تكوين جيش قوى كان الأول من نوعه عند الشعوب الجرمانية وهذا الجيش هو الذي حقق للفرنجة بقيادة شارل مارتل النصر على المسلمين في معركة بواتية عام ٧٣٢ ومع انه قد لا تكون لهذا النصر تلك الاهمية التي افضاها عليه المعاصرون الا انه على اية حال وفر لشارل مارتل الفرصة لمعالجة مشاكله الكثيرة في جهات اخرى.

ورث شارل مارتل عن ابيه وظيفة رئيس البلاط لجميع بلاد الفرنجة وبذل هو جهده للمحافظة على وحدة تلك البلاد، وحارب جميع القوى التي كانت تحاول النيل من تلك الوحدة او تحاول تحدي السلطة المركزية. لقد قاوم بشدة سلطة النبلاء المتزايدة وعمد الى تنحية الكونتات والدوقات في اجزاء المملكة وابدالهم بكونتات و دوقات من اوستراسيا فقط. فقد كان لا يثق باحد سواهم. قضى شارل مارتل على جميع مظاهر الاستقلال المحلي وعلى كل انواع التحدي للسلطة المركزية خاصة في برغنديا واكوتين . وقاد من اجل هذا حملتين ضد البافاريين و خمس

حملات ضد السكسون، وحملات كثيرة اخرى ضد اجزاء اخرى من مملكة الفرنجة. وهكذا ترك شارل مارتل المملكة عند وفاته وهي موحدة وقوية كل هذا ولم يكن هو الا رئيسا للبلاط دون ان يرتقي العرش .

انتهاء حكم الميروفنجيين وتولي الكارولنجيين الحكم :

اشترك ولدا شارل مارتل وهما كارلمان وبيين القصير في الحكم لفترة قصيرة من بعد وفاة ابيهما . ولكن الأول انسحب عام ٧٤٧ ودخل الدير فانفرد ببين بالسلطة وصمم ببين منذ البداية على وضع حد لوجود الميروفنجيين غير الطبيعي. وبدأ في اتخاذ الخطوات لذلك فوطد علاقاته بالكنيسة ، حيث اعاد لها بعض اراضيها التي كان والده قد انتزعها منها . ثم انتخب ببين ملكاً من قبل النبلاء الفرنجة المجتمعين في سواسن في كانون الثاني عام ٧٥٢ وكان بيين قد حصل على موافقة البابا حول هذا الامر. فقد تقدم الى البابا بالسؤال التالي هل هو صواب ان يحمل رجل لقب الملك بينما يقوم سواه بممارسة السلطة ؟ وكان الجواب في صالح ببين فقال البابا في اجابته ان ذلك امر ليس من الصواب بشي ولم يكتف البابا ستيفن الثاني بهذا، بل جاء بنفسه الى بيين في عام ٧٥٤ ونصب الملك بيبن ملكا على الفرنجة ، فكان بيين اول ملك في الغرب ينصب رسميا من قبل البابا . واثاب ببين البابا على موقفه هذا فقدم لــه المساعدة ضد اعدائه اللمبارديين ثم اعطى البابوية ما اخذ يعرف منذ ذلك الوقت باسم (منحه ببين (Pipen Donation)) وهي اراضي واقطاعيات كثيرة في ايطاليا. لقد عزز بيين بسياسته هذه تجاه الكنيسة التحالف والتعاون القائمين بين الفرنجة والبابوية. وكانت الكنيسة بامس الحاجة في هذا الوقت بالذات الى مساعدة بيين وحمايته فكانت تحيط بها المشكلات . فكان هناك خلافها المستعصي مع كنيسة القسطنطينية وكانت هناك تهديدات اللمبارديين المستمرة. على اية حال لم تكن سياسة بيين هذه تجاه البابوية الا تأكيدا العلاقات الصداقة التقليدية السابقة التي ترجع الى عهد كلوفس ، والتي سار عليها اغلب رؤساء البلاط ، ووطد دعائمها التعاون في هداية الشعوب الجرمانية الوثنية الى المسيحية. وواصل بيين سياسة التوسع ، وهذه هي السياسة التقليدية الأخرى التي تميز بها تاريخ الفرنجة . فبعد ان دفع المسلمين الى ما وراء جبال البرنس، وقضى على محاولات التمرد في اوكتين وبافاريا ، اندفع بيين في توسعه في سكسونيا. وهكذا نجح ببين في الحفاظ على انجازات عائلته في الابقاء على وحدة مملكة الفرنجة وقوتها.

والى جانب ما سبق ، فقد قام بيين باصلاحات مهمة في الكنيسة بعد ان دب الفساد في اجهزتها واقعدها التفسخ الذي حل بها عن القيام بواجباتها الروحية على الوجه الصحيح . فكان هناك الكثير من الاساقفة والقسس السيئ

السمعة واصبحت الكثرة من الكنائس فقيرة معوزة بعد ان نهب النبلاء اموالها واستطاعوا بطريقة او باخرى الاستحواذ على املاكها. ونتيجة للاصلاحات التي قام بها بيبن في هذا المجال استعادت الكنيسة مكانتها وهيبتها.

وقد عقدت عدة مجامع دينية (Synod) ونظمت خدمات الاساقفة والقسس، وطرد أولئك الذين لم يكونوا مؤهلين للخدمة الروحية. وانشئت كنائس جديدة ، وملئت الشواغر التي كانت تعاني منها الكنائس القديمة . والزم جميع الاساقفة باعلان ولائهم الكامل للبابا. وواضب بيبن على عقد مجامع دينية للحفاظ على نظام الكنيسة ولمحاسبة الاشخاص غير اللائقين بها.

لقد اكدت تلك المجامع الدينية عطلة ايام الاحد وفرضت على الجميع دفع عشوراً للكنيسة. وفي مجال السياسة الخارجية كانت المشكلة الايطالية اكثر المشكلات التي واجهت بيبن الحاحا. وكان البابا ، كما مر بنا، قد اسدي جميلا الى الكارولنجيين بتأييده ارتقاء بيبن عرش مملكة الفرنجة ، وصار لزاما على بيبن ان يرد ذلك الجميل ، بعد ان تعرض البابا ستيفن الثاني لخطر اللمبارديين وتهديداتهم لقد فرض ملك اللمبارديين اوستولف (Aistulf) (٧٤٩ – ٧٥٦) ضرائب باهضة على سكان ايطاليا ، وحاول البابا ، كما حاول الامبراطور الشرقي اقناعه بالعدول عن سياسته التعسفية في ايطاليا ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل فلجأ البابا الى بيبن والى النبلاء الفرنجة مستصرخا اياهم تقديم العون الى خليفة القديس بطرس الذي يخصه الله بمفاتيح السماوات والجنات. ولم يكتف البابا بهذا بل شد الرحال عام ٧٥٤ لمقابلة بيبن وقد مسحه ومسح ولديه كارلمان و شارلمان بالزيت المقدس. ودعا لهم جميعا ، وتوعد الفرنجة باللعنة الابدية ان هم اختاروا سواهم وذرياتهم للعرش. ولم يكن التدخل في الشؤون الايطالية من الامور المرغوب فيها من قبل بيبن والنبلاء الفرنجة، وحاول بيبن الا يفعل الا ما هو ضروري. ودخل الفرنجة ايطاليا ، وحقق بيبن انتصارات صغيرة على اوستولف، فاضطر هذا الى الخضوع ، معترفا بسيادة بيبن ومتنازلا عن كثير من الاراضي في ايطاليا الى البابا ، وانسحب الفرنجة من الساحة الايطالية، ولكن اوستولف عاد الى مضايقة البابا في السنة التالية ٧٥٥ الأمر الذي اضطر معه بيبن الى القيام بحملة ثانية على ايطاليا . وذلك بعد ان تلقى ذلك النداء المثير من خليفة القديس بطرس بحق القديس بطرس الذي يستصرخ ابناءه ويعرض عليهم الفردوس والنعيم لقاء اطاعته ويحذرهم العذاب الأليم من معصيته وخذلانه وفي هذه الحملة حوصر اوستولف في بافيا واجبر على الاستسلام. وقد الحقت مناطق شاسعة كانت خاضعة للمبارديين بالولاية البابوية، وفرضت غرامة حربية كبيرة على اللمبارديين والواقع صارت هناك دولة بابوية واسعة تحت حماية الفرنجة . وتماشيا مع تقاليد الفرنجة، قسم بيبن مملكته . بين ولديه شارلمان و كارلمان . وتوفي الاخير في عام ٧٧١ وتوحدت مملكة الفرنجة مرة اخرى تحت حكم شارلمان .

المحاضرة العاشرة

(شارلمان ٧٦٨ – ٨١٤)

مما لا شك فيه ان حكم شارلمان يعتبر فاتحة لعهد جديد متميز ليس بالنسبة لتاريخ الفرنجة فحسب ، بل بالنسبة لتاريخ أوربا كلها. لقد جاء شارلمان ليضع اللمسات الاخيرة لعملية الصهر والاندماج للعناصر الجرمانية والرومانية في وسط وغرب اوربا. والى جانب هذا كان شارلمان مواظبا على سياسة الفرنجة التقليدية في التوسع ، بعد ان اخذت لها ابعادا جديدة وهدفا واضحا يتلخص في ضم جميع العناصر الجرمانية في اوربا وصهرها في دولة واحدة. وادى اندفاع شارلمان في تنفيذ هذه السياسة الى تقدمه في اراضي جديدة كانت حدودها ملاصقة لشعوب اخرى غير جرمانية مثل الشعوب السلافية والمجريين والبلغار والبيزنطيين والعرب. كما استمر شارلمان في اتباع سياسة الفرنجة التقليدية الخاصة بتعزيز التحالف والتعاون مع البابوية. والحقيقة ان الاسس لأوربا الرومانية الجرمانية المسيحية التي ارسيت قواعدها منذ قرون عديدة قد اخذت تظهر ملامحها بشكل واضح وجلي في هذا الوقت.

حروب شارلمان

وعهد شارلمان عبارة عن سجل للحروب المتواصلة التي استمرت طيلة سنين حكمه دون توقف. وكان هدفه من تلك الحروب حماية الحدود ودفعها وضم عناصر جرمانية جديدة اليها ونشر المسيحية بين الشعوب الوثنية . وقد تكون انجازاته الحربية هي التي اكسبته لقب العظيم. وقاد شارلمان بنفسه او بانتدابه احد ابنائه او ضباطه خلال حياته ما لا يقل عن اربع وخمسين حملة. كان خمس منها ضد اللمبارديين ، وثمانية عشرة ضد السكسون ، واربع ضد الافار ، واربع ضد السلاف ، وسبع ضد المسلمين في اسبانيا وجنوب فرنسا ، واثنتان ضد البيزنطيين. وكان امرا استثنائيا ان يسجل في احداث عام ٧٩٠ لا توجد حرب لهذا العام. كانت اول حروب شارلمان ضد اللمبارديين ، فقد جدد هؤلاء تهديداتهم للولايات البابوية. فسار شارلمان الى ايطاليا وحاصر عاصمتهم بافيا ، وقضى على جميع دوقياتهم ثم اعلن نفسه ملكا على اللمبارديين ، فصار لقبه الرسمي ملك الفرنجة واللمبارديين والرومان ثم واصل شارلمان فتوحاته في ايطاليا فضم فنيسيا وساحل دلماشيا وجزيرة كورسيكا وصارت حدوده في هذه الناحية محاذية اللامبراطورية البيزنطية. وخلال محاصرته إلى بافيا عام ٧٧٤ غادرها الى روما للاحتفال بعيد الفصح هناك. فكان اول ملك فرنجي يدخل روما ، وقد استقبل فيها استقبالا حافلا وهناك اقر(منحة ببين) وان قيل انه اقتطع جزءا كبيرا منها. وعلى الرغم من اعترافه بالولاية البابوية فانه لم يترك مجالا للشك والالتباس

بانه حاكم الرومان وحامي المدينة المقدسة والسيد الفعلي لها. لقد كان على البابوات ان يصغوا اليه وهو يأمر البابا كما يامر اي اسقف او حاكم في مملكته. فبالنسبة الى شارلمان لا يتميز البابا الا بالوضع التقليدي الرفيع لكنيسة روما. وان سيادة شارلمان على الكنيسة لم تكن موضع جدل وخلاف. لقد كتب مرة الى البابا قائلا انه من اختصاص الملك ومن واجباته المهمة الدفاع عن كنيسة الله المقدسة وحمايتها بحد السيف وتثبيت العقيدة الكاثوليكية وواجب الاب المقدس – البابا – مؤازة الملك ومساندته في جهوده هذه بصلاته ودعائه له وباتباع وتطبيق قانون الكنيسة وشرائعها دع حياتك ايها الاب المقدس تكن مثالا للقدسية ، دع فمك لا يفتح الا وينطق بالحكمة والنصح المقدس. وقد لا تكون نظرة شارلمان الى وظيفة البابا هذه موضع ارتياح من البابا ، ولكن قوة شارلمان وشخصيته اللامعة لم تدع البابوات في عهده مجالا للجدل والاعتراض بأي شكل من الاشكال.

وكانت حملات شارلمان التالية على البافاريين وانتهت تلك الحملات بدحر هؤلاء وضم اراضيهم كلها الى مملكة الفرنجة. وبحكم شارلمان بافاريا لامست حدود مملكة الفرنجة الافار في الدانوب الادنى. ولعل اهم حروب شارلمان واكثرها قسوة ومرارة هي تلك الحروب التي شنها على السكسون ، والواقع ان هذه كانت اعنف الحروب التي خاضها الفرنجة خلال تاريخهم. ولم يسبق لهم ان قاموا بحرب بمثل هذه الجدية والقسوة ، وتطلبت منهم مثل تلك المثابرة والجهد الكبيرين. ذلك ان السكسون، شانهم شان بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، كانوا محاربين اشداء ، وكما وصفهم اينهارت مؤرخ شارلمان حلفاء مخلصين لشيطان الحرب، معادين للدين لا يرون ما يعاب عليهم في تجاوز هم القوانين السماوية والبشرية. ولم يكن هدف شارلمان من حربه مع السكسون حماية حدود مملكته فحسب، بل كان يرمي من ورائها ايضا فرض الديانة المسيحية بالقوة العسكرية على السكسون، وكان هؤلاء آخر من تبقى من الشعوب الجرمانية لا يزالون محتفظين بالديانة الوثنية. لقد ركز الفرنجة لمدة ثلاثين عاما جهودهم وصبوا جيوشهم في سكسونيا. وقاد شارلمان بنفسه عددا كبيرا من الحملات ضد السكسون ، وكانت القسوة هي الطابع المميز للصراع بين الفرنجة والسكسون. يكفي ان يذكر هنا انه في يوم واحد فقط قطع الفرنجة رؤوس ٤٥٠٠ من السكسون في فردان عام ٧٨٢. وهجر شارلمان عشرات الألوف من السكسون وانتزع اراضيهم ومنحها لبقية الشعوب الجرمانية.

وبعد ان حقق شارلمان النصر النهائي في سكسونيا ، وانهارت تماما مقاومة اهلها ، نظمت شؤونها وثبت وجود الكنيسة المسيحية فيها ، وحوالي عام ٧٨٢ اصدر شارلمان مرسوما اعطى بموجبه الخيار للسكسونيين بين المسيحية والموت. وفرض عليهم عقوبة الموت لاي تجاوز على الكنيسة بأي شكل من الاشكال. وخضع السكون لهذه القسوة ، ولكن الاساقفة بقوا لمدة طويلة يشكون من ميل الناس في سكسونيا الى الوثنية والى عبادة الهتهم

القديمة. على اية حال ، ادت هذه السياسة القاسية الى جر السكسون والى دمجهم في العالم الاوربي. كما ادى توسع الفرنجة في سكسونيا الى وضعهم الى جوار السلاف.

وباحتلال اراضي اللمبارديين والبافاريين والسكسون، اتم شارلمان العمل الذي بدأه كلوفس ، فقد ضمت الشعوب الجرمانية الى مملكة الفرنجة ولم يبق خارجاً عنها سوى الانكليز والسكسون في الجزر البريطانية ، والشعوب الاسكندنافية. وفيما وراء الاراضي التي كان يقطنها السكسون والبافاريون واللمبارديون انطلقت جيوش شارلمان لتقيم الماركات أو ولايات الحدود. وهذه الماركات كانت في الواقع نقاط حماية ودفاع في وجه الشعوب الأخرى المجاورة لمملكة الفرنجة في حدودها الجديدة وكانت في الوقت نفسه نقاط انطلاق و تغلغل في اراضي تلك الشعوب. ومن هذه الماركات المارك الداني وهو اصغر الماركات التي اقامها شارلمان وهو عبارة عن برزخ يفصل بين السكسون وبلاد الدانيين اقيم لمنع هؤلاء من تقديم المساعدة الى السكسون خلال صراع هؤلاء المرير مع الفرنجة. ومن هذا المارك الداني اشتق اسم الدانمرك. واقام شارلمان ماركا آخر شرق سكسونيا حيث السلاف وجعل مركزه مجد برغ (Magdberg) وسمي هذا بالمارك القديم واستمر تقدم الفرنجة شرقا بعد فتح بافاريا ، حتى بلغوا حدود هنغاريا الحالية ، حيث شعب الاقار. ولحماية بافاريا وايطاليا من هجمات الاقار ، أقام شارلمان المارك الشرقي في ادنى الراين ، وكما ذكرنا ان الغرض من جميع هذه الماركات لم يكن دفاعيا فحسب ، بل كانت كلها مراكز انطلاق للفتح والاستعمار. وكانت هذه نقطة البداية لحركة التوسع الجرمانية جهة الشرق وباقامة المارك الاسباني في الجنوب والمارك البريتاني في الغرب اتم شارلمان سلسلة الماركات حول امبراطوريته الواسعة . لقد حققت مملكة الفرنجة توسعا في كل الجهات. وكانت تحتاج الى حماية خاصة من المسلمين ، فعبرت جيوش شارلمان جبال البرنس ولكن حملته الاولى انتهت بكارثة رونسفو تركت اثارها في الادب الشعبي ، حيث نظمت في تمجيدها عدة ملاحم من اشهرها ملحمة رولاند.

شارلمان يتوج امبراطورا

لم تحقق اية شخصية في اوربا من انجازات بقدر ما حققه شارلمان منذ عهد اوغسطس فقد ضمت امبراطورية الشعوب الجرمانية كلها تقريبا وامتدت حدودها فشملت اقطارا كثيرة بل انها صارت أوسع من القسم الغربي للأمبراطورية الرومانية عندما كانت في اوج عظمتها واتساعها. وكانت علاقته مع الكنيسة جيدة للغاية بل ان البابوية لم تنكر على شارلمان سيادته وحمايته لها. وفي عام ٧٩٩ كان وضع البابا ليو الثالث حرجا ودقيقا للغاية نتيجة تمرد اقطاب الكنيسة في روما عليه. واتهامهم اياه بسوء الخلق والفساد. ولجأ البابا الى شارلمان طالبا العون والتأييد. وقام شارلمان بزيارة روما. وفي يوم الاحتفال بعيد الميلاد عام ٨٠٠ وفي كنيسة القديس بطرس ، وبينما

كان شارلمان را كعاً امام المذبح ويحاول النهوض تقدم منه الباب ووضع التاج على رأسه ودعا له بالنصر والتوفيق كامبراطور الرومان (ويقال ان شارلمان نفسه فوجئ بهذا الشيء / بل ان مؤرخه اينهارت كتب يقول لو ان شارلمان كان على علم بما كان يخبئه له البابا ليو الثالث لما دخل الكنيسة ذلك اليوم ، و لما شهد الاحتفال بعيد الميلاد هناك فأن لعملية التتويج هذه اهمية خاصة . فللمرة الأولى يتوج – ملك جرماني امبراطورا . فمملكة الفرنجة الان من الناحية النظرية امبراطورية رومانية غريبة وان دل الأمر على شيء فانما يدل على ان فكرة اوربا موحدة ومنتظمة كلها بكيان سياسي تحت زعامة روما لا تزال حية وقوية. ومن الناحية العملية ، فقد كانت هذه موحدة فعلا قبل التتويج ، ولم يأت التتويج بشيء جديد ، فقد وحدها شارلمان واسلافه من الملوك الفرنجة. ولكن المعاصرين اعطوا للحادث أهمية خاصة ونظروا الى الأمر على انه عودة العصر الذهبي عصر الامبراطورية الرومانية ويمكن القول ان عملية التتويج ان لم تكن دليلا على نجاح عملية الصهر للعناصر الجرمانية والرومانية في مجتمع الغرب الجديد ، فانها على اي تقدير رمـزا ومظهرا مهم لذلك الصهر ، الذي هو في طريقه الان الى التكامل ، بعد ان قطع شوطا بعيدا وان عملية التتويج لم تكن البداية له على اية حال.

ان امبراطورية جديدة من نوع ما ظهرت في عام ٠٨٠٠ وقد استمر هذا النوع من التنظيم السياسي في اوربا بهذا الشكل او ذاك ، دون انقطاع ، حتى عام ١٨٠٨ عندما الغاه نابليون بونابرت. انها امبراطورية ظهرت برعاية الكنيسة وببركات البابوية. ولم يكن لظهورها اهمية مباشرة على العلاقة بين الكنيسة والسلطة الزمنية الحاكمة . فوجود شارلمان القدير المهيمن لم يدع مجالا للبابوية للاستفادة من هذه السابقة ، ومن اقامة اية ادعاءات عليها . ولكن المستقبل كشف عن جوانب لم تكن لتخطر ببال المعاصرين فقد اتخذ البابوات من عملية التتويج هذه ذريعة لادعاء السيادة والسلطة فهم الذين خلقوا الامبراطورية وهم الذين وضعوا التاج على رأس أول امبراطور بل هم الذين حولوا التاج من رأس الامبراطور البيزنطي في الشرق الى رأس ملك الفرنجة في الغرب. وانهم بهذا اعلى مقاما من الاباطرة. ولا يمكن ان يكون هناك امبراطور وامبراطورية دون رضى البابا وبركاته وتأييده، بل وتتويجه.

لقد صار الان زعيمان للمجتمع الاوربي احدهما ديني وهو البابا وثانيهم دنيوي او علماني وهو الامبراطور . وسيأتي الوقت الذي تسفك فيه الدماء وتهدر فيه الجهود لتقرير ايهما اسمى منزلة من الآخر، ومثل هذا لم يكن يخطر ببال احد في عهد شارلمان. فلقب الامبراطور الذي اعطاه شرعية السيادة على روما لا يعدو أن يكون تأكيدا للسلطة التي كان يملكها شارلمان فعلا ويمارسها. اما بالنسبة لسكان مملكة الفرنجة والجرمان عامة فلم يكن لمثل هذا اللقب اهمية كبيرة .

كان شارلمان حذرا في علاقاته مع البيزنطيين ، ولم يكن يرغب في استفزازهم اللقب الامبراطوري. وربما كان الاسباب التي دفعت البابا ليو الثالث منح لقب الامبراطور الى شارلمان هو رغبته في التخلص من اثر اية سيطرة بيزنطية وبالنسبة للبيزنطيين ، فان الامبراطور الوحيد للمسيحيين هو ذلك الذي في القسطنطينية.

فهو لا يزال يدعي انه حاكم الشرق والغرب، كأن لم يكن قد حدث شي خلال كل تلك القرون. ان اقدام البابا على منح شارلمان لقب الامبراطور وقبول الاخير له يجعل من الاثنين متمردين على سلطته الشرعية. ولفترة من الزمن كانت هناك مخاوف من ان شارلمان سيزحف على القسطنطينية لخلع الامبراطور هناك وتوحيد الامبراطورية . ويبدو انه لم يكن لتلك المخاوف من مبرر ، بل ان شارلمان فكر بمشروع آخر لتحقيق الوحدة بين الشرق والغرب. لقد كانت ايرين هي الامبراطورة في القسطنطينية فاراد شارلمان الزواج منها وبهذا يتم توحيد الامبراطورية واللقب معا. وقد يكون هذا هو البعث الحقيقي للإمبراطورية القديمة.

وكانت ايرين راغبة في مثل هذا المشروع، ولكن عزلها ونفيها عام ٨٠٢ حال دون ذلك وقد تطلب الامر من المفاوضات الشاقة والحروب المريرة كي تعترف القسطنطينية باللقب الامبراطوري لشارلمان واخيرا اعترف الامبراطور ميخائيل الأول بلقب شارل الامبراطوري في عام ٨١٢ ، وما كانت القسطنطينية في الواقع لتوافق على ذلك ، لولا المشكلات الكثيرة التي كانت تواجهها في ذلك الوقت ، و لولا الهزائم الدامية التي اصابتها على يد البلغار ووضع ذلك الاعتراف موضع التنفيذ عندما خاطب السفراء الذين بعثهم ميخائيل الاول الى آخن لمقابلة شارلمان بصفته امبراطورا وملكا وهكذا كما رجع الوضع الى ما كان عليه في اواخر ايام الامبراطورية الرومانية بل الى عام ٣٩٥ على وجه التحديد عندما توفي ثيودوسيوس وكانت هناك امبراطورية واحدة وامبراطوران ولعل هذا يوضح مفهوم الامبراطورية السائد في الشرق والغرب في القرن التاسع . كما يوضح ايضا ان روما لم تفقد اسمها السحري ، ولا تزال تمثل الكيان السياسي المثالي الذي يضم العالم المسيحي برمته او في الاقل العالم المسيحي الغربي. ولعل هذا هو المغزى المهم لتتويج شارلمان امبراطورا .

لقد كان لشارلمان مفهوم ثيوقراطي واضح للدولة. انها دولة تستند حكومتها الى سنة سماوية وتسترشد قيادتها بالهام من الله أنه الممثل المختار لله لتحقيق أهداف الهية ، وان تتويجه من قبل البابا يضفي على منصبه الطابع المقدس. وفي قوانينه لم يفرق شارلمان بين القوانين الدينية والدنيوية فهذه كلها امور حكومية . ان الملك هو الحاكم المسؤول عن حكم جميع المسيحيين . انه المسؤول عن كل شأن من شؤنهم الدنيوية والدينية ، وهو مشرع لهم في كل الامور دون استثناء فهو أملى على البابا كل امر من الامور الدينية والدنيوية ، بل انه املى عليه امورا هي في صميم العقيدة الكاثوليكية واملى على الاساقفة والقسس ما يقدمون من مواعظ ، بل املى على

المنشدين المرتلين في الكنيسة ينشدون. ولقد كان مؤمنا بضرورة ابعاد رجال الدين ابعادا تاماً عن مجال القضايا الدنيوية والسياسية. مع مراعاة ضمان احتياجات الكنيسة. وقد جعل دفع العشور لها امرا اجباريا.

الادارة في عهد شارلمان

بقي الموظفون المعينون من قبل الملك يمثلونه في مناطق تعيينهم وكانوا عادة يشغلون وظائفهم مدى الحياة ومضى الكونتات يتمتعون في كونتياتهم بصلاحيات. عسكرية ومالية وقضائية واسعة : ونظام الكونتات هذا طبق في ايطاليا و بافاريا وسكسونيا أما وظيفة الدوق والتي تمثل المصالح القبلية فقد الغيت ، وكذلك الحـال بالنسبة الى وظيفة رئيس البلاط. وفي الكونتية كان هناك مساعدين للكونت ورجال المئات (Vicors) وكان هذا النظام الاداري موجودا منذ عهد المير و فتجيين ولكنه صار الان اكثر تنظيما فالكونتية هي الوحدة الادارية الرئيسية وتنقسم كل واحدة منها الى وحدات ادارية اصغر منها تعرف بالمئة ومجموعها المئات (فيكارتز) اما الماركات او ولايات الحدود والتي سبق الكلام عنها فقد عين لها موظفون خاصون كانوا من الحكام العسكريين يسمى احدهم كونت المارك (The Conrt of the Marc) وهو ما يعرف بالفرنسية بالماركيز ومساحة المارك الواحد اوسع عادة من مساحة الكونتية ووجبات كونت المارك اكثر من واجبات الكونت ، فان عليه بالاضافة الى واجبات الكونت الاعتيادية مهمة الدفاع عن الحدود. وكان يشغل وظيفة الكونت شخص من المنطقة نفسها التي هي في عهدته ومن اسرة ذات نفوذ . وهي وظيفة قد تتحول الى منصب وراثي. كانت لدى شارلمان مخاوف دائمة من ان يصبح الكونتات مستقلين بكونتياتهم ، ولذا حاول ابقاء نوع من السيطرة عليهم. ورأى ان خير وسيلة لذلك هو التفتيش المستمر والاشراف المتواصل على الكونتات فاوجد نظاما خاصا واشخاصا خاصين هم المبعوثون الملكيون (dominicus) (Missus) القيام بهذه المهمة. وقسمت المملكة بموجب النظام الى مناطق كل منطقة تضم عددا من الكونتيات مسؤول عنها مبعوث ملكي وعادة مبعوثان احدهما مدني خاص بالاشراف على الشؤون المدنية والآخر ديني بالاشراف على الشؤون الدينية انهما حلقة وصل بين الملك وشعبه. فهما يقومان بزيارة الكونتيات فيقدمون التقارير عنها الى الملك حول كل الامور الدينية والدنيوية وقد اصدر شارلمان قانونا خاصا عام ٨٠٢ لتنظيم امر المبعوثين الملكيين. وكان هذا القانون يحتوي على تفاصيل كثيرة تخص واجبات المبعوثين الملكيين وصلاحياتهم ، وهي واسعة وشاملة. والواقع انه في حالة وجود . حكومة مركزية قوية ومبعوث ملكي نزيه وكفؤ يؤدي نظام المبعوثين الملكيين خدمة كبيرة ومفيدة . ولكن في حالة فقدان هذه او تلك فلن يحقق النظام الهدف المنشود منه. وهكذا أوجد شارلمان وظيفتين جديدتين هما وظيفة كونت المارك ووظيفة المبعوث الملكي. وكان شارلمان دائب الحركة والتنقل بين اجزاء مملكته الواسعة . وقد يصعب الحديث عن عاصمة معينة له .

وان كان هو يفضل اكس لاشابل – آخن – التي كانت تقع في قلب امبراطوريته والتي كان يفضلها لموقعها وربيعها الجميل والدافئ.

في الوقت الذي جاء فيه شارلمان الى الحكم كان نظام الضرائب الروماني قد زال برمته . فلم يعد الشخص الحر يدفع ضريبة للدولة ، بل استعيض عنها بالخدمات التي يؤديها ، ومن تلك الخدمات ضيافة الملك ورجال بلاطه حيث كان هؤلاء في حركة مستمرة وتنقل دائم. وكذلك ضيافة موظفي الحكومة اثناء مرورهم وتنقلاتهم . وكان يفرض العمل الالزامي في حالات الاشغال ذات النفع العام . ولكن اهم واجبات الشخص الحر هي : تلك الخاصة بالقضاء والخدمة العسكرية. فقد كان يحتم على كل فرد من الفرنجة حضور المحكمة التي يدعو اليها الكونت او يدعو اليها من يمثله . كما كان ملزما بالحضور اذا ما دعاه الكونت للقيام بالخدمة العسكرية بعد ان يسلح نفسه تسليحاً كاملا. وكانت حروب شارلمان المستمرة وساحات القتال النائية قد تطلبت اعدادا كبيرة من المجندين ، وكان لهذا اثارة المدمرة على الاحرار من صغار المزارعين. وهذا يفسر قيام عدد كبير منهم ممن كانوا على شفى الكفاف من التنازل عن حرياتهم ليصبحوا في عداد العبيد موكلين واجباتهم القضائية والعسكرية الى الآخرين الذين كانوا في وضع احسن وقدرة اكبر للقيام بتلك الواجبات وحاول شارلمان التخفيف من وطأة هذه الحالة فقرر عدم عقد المحكمة الا للجرائم الكبيرة. وحدد عدد مرات عقدها بثلاث مرات فقط في العام . اما تلك المحاكمات التي تعقد للنظر في القضايا الصغرى فقد اعفي الاحرار من حضورها وبالنسبة الى الخدمة العسكرية فقد قرر شارلمان بان تكون دعوة الرجال الاحرار اليها تقوم على اساس الحاجة المحلية وليس على اساس حاجة الامبراطورية العامة. وجعل الخدمة العسكرية تتناسب مع مقدار الملكية. فهؤلاء الذين يملكون مساحة معينة من الأراضي كانوا ملزمين بالحضور متى يستدعون وهم مسلحون تسليحا كاملا. اما اولئك الاحرار الذين يملكون اقل من ذلك او لا يملكون شيئا على الاطلاق فيتعاونون فيما بينهم وكل مجموعة منهم تساهم في تسليح واحد منهم فقط لاداء الخدمة العسكرية على اساس مساحة معينة من الارض يقابلها رجل مسلح واحد ولكن هذا الاجراء بحد ذاته ، قد جاء للتخفيف عن كاهل الرجال الاحرار الاعتياديين باعفائهم من المساهمة في الشؤون السياسية والعسكرية وتشجيعهم على التخلي عن وظائفهم الى من هم اكثر ثراء منهم من الملاكين. كان في الواقع نقطة تحول لعدد كبير من الاحرار الى صنف العبيد. فمنزلة الرجل الذي ليس له موضع قدم في المحكمة ولا يحارب ، لا يختلف كثيرا عن منزلة العبد. وفي الوقت نفسه ساعد هذا الاجراء كثيرا في بروز الطبقة النبيلة المحاربة والى جانبها طبقة الفلاحين العبيد.

المحاضرة الحادي عشر

(لويس التقي ٨١٤ – ٨٤٠)

توفي شارلمان في ٢٨ كانون الثاني عام ٨١٤ وآلت مملكته الواسعة الى لويس التقي. وهو الابن الوحيد الذي كان قد بقي له على قيد الحياة. وسبق لشارلمان ان عقد مجلسا من كبار نبلاء مملكته في اكس لاشابل عام ٨١٣ توج فيه بيده ابنه لويس ملكا وامبراطورا دون تدخل من البابا ودون حاجة الى مصادقته.

كانت المملكة عند وفاة شارلمان تتمتع بالسلام، فلم يكن هناك تهديد خارجي ولا هجوم محتمل ، ولا تمرد كبير . لقد كان خليفة شارلمان لويس التقي ذا ثقافة لاتينية ودينية ، الذي دفع الى اعطائه لقب التقي. والواقع انه لم يكن تقيا بقدر ما كان ضعيفا ومتخاذلا ومترددا. ولم يستطع لويس ابدا مل الفراغ الذي تركه ابوه القدير المتمكن. وكان لشخصيته الضعيفة اثرها في تفكك الامبراطورية الكارولنجية. فقد شجع ذلك الضعف كثيرا من العناصر على التمرد. فقد ثار عليه ابناؤه الطموحون واقرباؤه الذين طمع كل واحد منهم في اقتطاع ما يمكن له اقتطاعه من تلك الامبراطورية الواسعة. كما دفع النبلاء في طول البلاد وعرضها الى التجاوز. على اختصاصات وصلاحيات السلطة المركزية. وكان هذا عاملا مهما في انحلال الامبراطورية وفي تبلور نظام الاقطاع. وفي عهد لويس التقي ايضا ازدادت سلطة البابوية واخذت في ادعاء حقوق اكثر واكثر وفي ممارسة سلطات دينية ودنيوية اوسع واوسع . ومنذ البداية واجهت لويس التقي مشكلة اساسية هي مسألة وراثة الامبراطورية فقد كان له ثلاثة ابناء هم: لوثر ولويس الألماني وبيبن ، ويفترض تقسيم الامبراطورية بين هؤلاء الابناء الثلاثة طبقا لتقاليد الفرنجة. ولكن الشيء الجديد في الأمر، هو ان التقسيم يتنافى تماما مع مفهوم الامبراطورية ، فالسلطة الامبراطورية بطبيعتها غير قابلة للتجزئة ، وهي واحدة كالسلطة البابوية تماما .

واخيرا قرر لويس الابقاء على المظهر الامبراطوري لمملكته دون التفريط نهائيا بالعرف والتقاليد الجرمانية الخاصة بالتقسيم المتساوي بين الابناء . ففي عام ٨١٧ عين ابنه الاكبر لوثر وصيا على ان يرث لقب الامبراطور من بعده. وفي الوقت نفسه اعطى بيبن اوكتين واعطى لويس الالماني بافاريا ، وقد يكون هناك قليل من الشك في ان لويس قام بهذا الاجراء بعد التشاور مع البابا. ولم ترض هذه التسوية الاخوين لويس الالماني وبيبن فقد اعتبراها مجحفة بحقوقهما. واخذا يتربصان بأبيهما واخيهما لوثر للانتقام منهما. وسرعان ما جات الفرصة وتهيأت لهما الظروف لذلك. فقد تزوج لويس التقي عام ٨١٩ من يوديث الفتاة الجميلة الفطنة الطموحة وسرعان ما وقع تحت

تأثيرها. وفي عام ٨٢٣ رزق منها بولد سمي (شارل الاصلع) واخذت يوديت تحيك الدسائس وتضغط على زوجها لحمله على اعادة النظر في قسمته السابقة كما تعاونت مع ولديه الساخطين لويس الالماني وبيبن.

وخضع لويس التقي لضغط زوجته وانتزع من ابنه الاكبر لوثر لقب الوصي وانكر عليه وراثته للقب الامبراطور. وعبر لوثر جبال الالب وذهب الى روما لعرض ظلامته وشكواه امام الاب المقدس ابيه واخوته. واعاد لويس التقي التقسيم وخص ابنه شارل الاصلع هذه المرة بحصة الأسد من مملكته ، الامر الذي اثار بقية اولاده جميعا – لوثر ولويس الالماني وبيبن – واتفقوا على محاربة ابيهم وساروا اليه عام ٨٣٣ وجاء بصحبتهم البابا غريغوري الرابع وانتصر الاخوان الثلاثة انتصاراً حاسما على ابيهم . والواقع انه كان نصرا للبابا الذي كان يشد ازرهم. فباسم السلام الالهي ادعى البابا الحق في التدخل لاعادة حقوق لوثر والحفاظ على مصالح اخويه لويس الالماني وبيبن. كما وبخ الامبراطور لما اسند اليه من جرائم ومخالفات ونكث العهد . لقد كانت حقا هزيمة للامبراطورية ونصرا للبابا والبابوية ، ولم ترضى التسوية جميع الاطراف المعينة. واستمر الصراع بين لويس التقي وابنائه الاربعة . ولم يضع موت بيبن عام ٨٣٨ ولا موت الامبراطور نفسه عام ٨٤٠ حدا للصراع. واخيرا وفي عام ٨٤٣ ، وبعد ان استنفذت قوة جميع الاطراف ، وضعت التسوية النهائية لاقتسام الامبراطورية الكارولنجية في معاهدة فردان المهمة.

معاهدة فردان عام ٨٤٣ :

قسمت الامبراطورية الكارولنجية بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ بين ابناء لويس التقي الثلاثة ، لوثر ، ولوس الالماني ، وشارل الاصلع. وتعتبر معاهدة فردان من اهم المعاهدات في التاريخ الاوربي ، فقد رسمت معالم اكثر من قطر من اقطار اوربا. واخذ لوثر بموجب المعاهدة شريطا من الأرض يمتد من هولندة الحالية الى ايطاليا ويشمل حوض الراين وايطاليا وسميت المنطقة كلها باسمه لوثرانيـــا (Lotharingia) واحتفظ بلقب الامبراطور . واخذ شارل الاصلع بلاد الفرنجة الغربية (West Frankland) وهي مقاربة لفرنسا وبلجيكا الحاليتين. اما لويس الالماني فقد اخذ بلاد الفرنجة الشرقية (East Frankland) وهي مقاربة لالمانيا الحالية. لقد انهت معاهدة فردان الامبراطورية الكارولنجية وصارت هناك وحدات سياسية متميزة . ان خارطة اوربا من غير شك قد وضعت خطوطها العريضة في معاهدة فردان.

الامبراطورية بعد فردان :

انهت معاهدة فردان من الناحية العملية الامبراطورية ولم يبق الا وجودها النظري. لقد كان للوثر نوع من السيادة غير الواضحة المعالم على اخويه شارك ولويس ولكن من الناحية العملية ، لم يعد حامل لقب الامبراطور يحكم سوى ثلث الامبراطورية التي كان يحكمها شارلمان.

وتردى وضع الامبراطورية كثيرا بعد وفاة لوثر عام ٨٥٥ ، فقد كان له ثلاثة ابناء فاقتسموا مملكته بينهم ، واخذ الاكبر منهم. لويس الثاني ايطاليا مع الامبراطوري. وإذا كان ابوه يملك من القوة والنفوذ بقدر ما كان لكل من اخويه لويس الالماني وشارل الاصلع ، فان لويس الثاني حامل اللقب الامبراطوري الجديد لم يكن الا ملكا من الدرجة الثانية بالنسبة الى عميه . وهكذا ظهر البون الشاسع بين واقع الأمبراطورية من ناحية ومفهومها النظري من الناحية الثانية. وقد يلخص بانه كان هناك امبراطور ولم تكن له امبراطورية.

وانحطاط مركز الامبراطور وتلاشي قوته كان يقابله من الجهة الأخرى ازدياد قوة البابا وامتداد نفوذه. وكان هناك توازن في القوى بين البابوية والامبراطورية ، أو بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية بشكل عام ، وان ما يخسره احدهما يربحه الآخر لقد فرض غريغوري الرابع نفسه على لويس التقي وابنائه. وفرض نقولا الاول ٨٥٨ – ٨٦٧ نفوذه على الامبراطور لويس الثاني. وهكذا انتهى ذلك التحالف بين البابوية والملكيتان الميروفنجية والكارلنجية وحلت محله سيطرة بابوية.

فالبابا بما يدعيه من اصول سماوية لسلطانه اعتبر نفسه الآن هو الحكم الفصل وهو الموجه والمرشد للحكام الدنيويين سواء كانوا ملوكا ام اباطرة . وان اي اعتراض على سلطته ، انما هي اعتراض على السلطة الالهية ، يستحق صاحبها العقاب . وكان الحرم الكنسي (او الحرمان) والتهديد بالحرم السلاح الماضي للبابوات ضد كل ملحد وجاحد ومتمرد من ملوك وامراء واباطرة.

وذهب البابا نيقولا الأول ابعد تلك الحدود عندما اراد فرض سيطرته على الكنيسة الشرقية واعلن الحرم ضد بطريق القسطنطينية ، الأمر الذي ادى الى زيادة التوتر بين الكنيستين الشرقية والغربية.

واتاحت وفاة لويس الثاني عام ٨٧٥ فرصة اخرى للبابوية لاظهار سيادتها على الامبراطورية ولتاكيد نظريتها القائلة بان الامبراطورية تستند في وجودها الى البابوية وليس الى الاسرة الكارولنجية. اذ لم يكن للويس الثاني ولد يرث العرش واللقب الامبراطوري من بعده . وكان اقرب الورثة اليه من الذكور كارلمان ابن عمه لويس الالماني ، وقد اختاره فعلا ليكون وريثه. ولكن البابا جون الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢) ارتأى غير ذلك ، فقد استدعى شارل

الاصلع العم الى روما و توجه امبراطورا. والواقع ان شارل الاصلع هو آخر من حمل لقب الامبراطور من الكارولنجيين وكان يتمتع بشيء من السلطة والهيبة.

على اية حال لم تستفد البابوية ، على المدى البعيد ، من انهيار سلطة الكارولنجين فان ازدياد قوة النبلاء الاقطاعيين في اواخر القرن التاسع ، وهجمات الشماليين والمسلمين والهنغاريين والبلغار وضعف السلطة المركزية

والحروب الداخلية والمنافسات والمؤامرات التي سادت علاقات النبلاء والامراء كل هذه الامور تركت البابا والاباطرة الذين يختارهم لاحول لهم ولا قوة . بل ان تلك السلطة التي كان يدعيها البابوات وهي حقهم في تتويج الاباطرة صارت وبالا عليهم. فكم من ملك وامير ونبيل طموح شق طريقه الى روما في وسط تلك الفوضى الضاربة اطنابها في اوربا ، لارغام البابا على منحه الملقب الامبراطوري الرفيع، وتتويجه بالتاج الامبراطوري الكبير ولم يكن بوسع خليفة القديس بطرس الا ان يذعن وينفذ ما يطلب اليه.

<u>عوامل انهيار الامبراطورية الكارولنجية</u> :

يقول هنري برين المختص بتاريخ العصور الوسطى، انه على الرغم من سمعة شارلمان ومكانته ، على المرء إن لا يبالغ في اهمية انجازاته السياسية وتماسكها وصلابتها . فالامبراطورية التي خلفها لم تكن الا بناء هشاً ، سرعان ما تفكك ، ولم يمض على وفاته الا وقت قصير. ويرى برين ان عوامل انحلال الامبراطوري الكارولنجية هي في داخلية أساسها ، نابعة من طبيعة تركيبها .

ويفسر كرستوفر دوسن ، و هو مختص آخر في العصور الوسطى ، تلك العوامل الداخلية ، فيقول : ان بذور الفساد والانحلال تولدت في الامبراطورية الكارولنجية في أصولها الأولى. فعلى الرغم من مظاهر القوة ، فانها كانت بناء غير متجانس الاجزاء وهي وان ادعت لنفسها وراثة الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكنها في الحقيقة لم تكن الا مملكة جرمانية وليس شيئا آخر.

فالامبراطورية الكارولنجية كانت في الواقع قليلة الشبه بالامبراطورية الرومانية القديمة ، على الرغم من اسمها ، بل انها كانت اقرب الى الامبراطوريات البربرية التي أقامها الهون والافار والمغول. وهي الامبراطوريات التي كانت ثمارا عابرة من اعمال الحرب والغزو ، والاستيلاء ، والتي تعاقبت واحدة بعد أخرى على تخوم العالم المتحضر ، ثم ذهبت في سرعة مذهلة خلال تلك القرون. والواقع ان الامبراطورية الكارولنجية التي اراد لها اصحابها ان تكون وريثة للامبراطورية الرومانية القديمة كان يعوزها كل صفات الامبراطورية القديمة فليس لها

القانون الروماني ولا الكتائب الرومانية ولا السانتو الروماني ولا المدن الرومانية بل لم تكن سوى كتلة من مساحات اقليمية شاسعة. اما موظفوا هذه الامبراطورية الجديدة فلم يكونوا موظفين مدنيين مؤهلين للحكم والادارة بل كانوا كونتات وقادة عسكريون قبليون وشبه قبليين.

لقد كان اولئك الكونتات ونظائرهم الاساقفة يكونون الطبقة الحاكمة الارستقراطية الفعلية في المجتمع الكارولينجي. وكان عدد من هؤلاء يجتمعون بالملك مرتين في العام (في عيد الميلاد وفي عيد الفصح)

يساعدوه في ادارة شؤون مملكته. ولكن ذلك التجمع بقي ذا طابع بدائي قبلي ساذج من دون ان يتطور ويتحول الى مؤسسات سياسية وادارية واضحة المعالم دقيقة الاهداف. فلم تتوضح حتى النهاية ، اصلاحات واهداف المجتمعين. وهناك امر واحد بقي واضحا طيلة عهدي الميروفنجيين والكارولنجيين هو استمرار ازدياد نفوذ هذه الفئة الارستقراطية على حساب السلطة المركزية.

والواقع انه عندما اعتلى شارلمان العرش ، كانت هذه الطبقة الارستقراطية قد بلغت من القوة درجة اصبح من الصعب معها مقارعتها ، ولكن شخصية شارلمان المهيمنة وساعده القوى ابقى هذه الطبقة في مواقعها من دون السماح لها في تجاوز تلك المواقع . بل ان شارلمان حاول عن طريق المبعوثين الملكيين الحد من نفوذ الارستقراطيين من كونتات واساقفة ، ولكن اولئك المبعوثين جاءوا من الارستقراطية نفسها ، وبدلا من ان يعمل النظام على الحد من نفوذ الطبقة الارستقراطية فانه زاد من نفوذها ، فقد كانت مصالح المبعوثين الملكيين متفقة مع مصالح الكونتات والاساقفة . على اية حال ، ان ازدياد نفوذ الطبقة الارستقراطية كان على حساب السلطة الملكية ، وكان هذا عاملا مهما في اضعاف الملكية الكارولنجية وفي تفككها في نهاية الأمر.

والكارولنجيون جرمان ، وبقيت مثلهم ومفاهيمهم جرمانية في اساسها ، فشارلمان نفسه ، على سبيل المثال ، كان يرتدي الملابس الجرمانية ، ويحارب ويعمل كزعيم جرماني. فعلى هذا الاساس بقي المفهوم الروماني للوحدة والدولة والامبراطورية غريبا وغير متبلور بالنسبة لهم.

والواقع ان مفهوم الوحدة والامبراطورية لم يكن غير مستوعب من قبل الشعوب الجرمانية والنبلاء الجرمان فحسب، بل كان غير مستوعب ايضا من قبل العائلة المالكة الكارولنجية نفسها. وليس أدل على ذلك من استمرار الكار ولنجيين حتى نهاية عهدهم في اعتبار المملكة ملكا شخصيا للعاهل تقتسم بالتساوي بين ابنائه عند وفاته كأية

تركة اخرى. وكان للتقسيم المتتالي لمملكة الفرنجة منذ عهد كلوفس وحتى نهاية القرن التاسع عاملا مهما في تأجج الحروب الاهلية وتهديد وحدتها للخطر وفي استنزاف مواردها. لقد اعقب كل تقسيم حربا اهلية مدمرة ولعل حروب لويس التقي واولاده مثل لذلك.

هذه العوامل الرئيسة التي عملت على تفكيك الامبراطورية الكاروالنجية وهي عوامل داخلية كما يتضح لنا ، والى جانبها جاءت الهجمات الخارجية المتمثلة في غزوات الشماليين والسلاف والمجريين والبلغار والمسلمين لتعجل عملية الانحلال والتفكك .

العوامل الخارجية :

كان القرنان اللذان اعقبا وفاة شارلمان احلك فترات التاريخ الأوربي ، حتى انها سميت بالعصور المظلمة فقد سادت فيها الفوضى السياسية والتفكك الاجتماعي والانحطاط الثقافي. وتعرضت اوربا خلالها لغزوات فاقت في ضراوتها الغزوات قامت بها القبائل الجرمانية والهون في القرنين الرابع والخامس. فقد هاجم السلاف والهنغاريون والبلغار اوربا من الشرق، وهاجمها العرب من الجنوب ، وهاجمها الشماليون الفايكنك (Vikings) من الشمال والغرب ، ولم يكن اي من هؤلاء المهاجمين يكن في نفسه شيئا من الاحترام والود للمؤسسات القائمة. والمسيحية كما كان الأمر بالنسبة الى القبائل الجرمانية عندما اكتسحت جحافلها الامبراطورية الرومانية.

المحاضرة الثانية عشر

(انكلترا في العصور الوسطى)

مقدمة : كان يسكن انكلترا قبل الغزو الروماني ، الذي حدث في القرن الأول قبل الميلاد ، اقوام تعرف بالكلتيين ويعتقد ان اصول الكلتيين ترجع الى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد جاءوا اليها عبر المانش. وكان قد حل الايبريون بالجزيرة قبل الكلت ، فلما جاءهم الكلت فرضوا عليهم لغتهم ونظمهم ثم انهضم الكلت. انفسهم في الايبريين على مر العصور . ثم غزت الجيوش الرومانية انكلترا في القرن الأول قبل الميلاد. واحتفظ الرومان بنوع من السيطرة على البلاد الى اوائل القرن الخامس حيث اضطروا الى سحب حاميتهم منها نتيجة للاخطار المحدقة بالأمبراطورية الرومانية ولغزو القبائل الجرمانية لايطاليا. ولم تتأثر انكلترا كثيرا بالحضارة الرومانية ، وذلك لبعدها عن المراكز الرئيسة لتلك الحضارة من جهة ، ولبدائية الشعوب التي كانت – تقطنها من من جهة أخرى. وهاجمت القبائل الجرمانية البربرية ، وخاصة قبائل الانكلز والسكسون، انكلترا بعد انسحاب الرومان منها ، وقد نجح هؤلاء في احتلالها وفي اقامة عدد من الممالك الصغيرة فيها ، كانت في حالة حرب مستمرة مع بعضها البعض. وخلال تلك العصور من الفوضى السياسية نجحت الديانة المسيحية في شق طريقها الى الجزر البريطانية. واستطاع القديس اوغسطين نشر المسيحية في اواخر القرن السادس. وقد عمت الكنائس والأديرة اجزاء من انكلترا وغيرها من الجزر البريطانية وقام رجال الدين من اساقفة وقسس ورهبان في نشر الثقافة الرومانية وفي نشر نوع من التعليم.

واستمر الصراع بين الممالك الجرمانية الصغيرة مدة تزيد على القرنين وفي اوائل القرن السابع برزت سبع ممالك كبيرة متميزة هي كنت (Kent) في الجنوب الشرقي واسكس (Essex) وسوسكس (Sussex) ويعد ويسكس (Wessex) وسكان هذه الممالك كلها من السكسون ونورث امبريا (Northumlria) ومرسيا (Mercia) وانجليا (Anglia) . وسكان هذه الممالك الثلاث من الانكلز وفي اوائل القرن التاسع استطاعت احدى هذه الممالك السبع وهي ويسكس. الواقعة في اقصى الجنوب الغربي من انكلترا ، بسط سيطرتها على بقية الممالك ، فأقامت بذلك ، نوعاً من الوحدة السياسية في البلاد. وتعتبر هذه هي نقطة الانطلاق في التاريخ الانكليزي.

وتعرضت انكلترا خلال القرنين التاسع والعاشر الى هجمات الفايكنك ، وقد شملت هجماتهم مختلف اجزاء الجزء البريطانية. فالحقوا الخراب والدمار فيها ، وفي ويلز وايرلندة واسكو تلندة . واستطاع الملك الفريد العظيم ملك ويسيكس تنظيم المقاومة في انكلترا ضد الغزاة .

وبعد حروب طويلة توصل الى اتفاق معهم يقضي بتقسيم انكلترا الى قسمين أخذ هو أحدهما ، واستولى الفايكنك على الآخر. ونجح خلفاء الفريد في استخلاص ذلك القسم الذي اخذه الفايكنك وبهذا توحدت انكلترا.

وفي عهد الملك ادوارد المعترف Edward the Confessor اصبحت البلاد كلها تحت سيطرة النبلاء الاقوياء. وعندما توفي ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ . نشب صراع حول العرش وهاجم احد قادة الفايكنك انكلترا من ناحية الشمال بحجة ان ادوارد وعده بالعرش من بعده كما اغار وليم دوق نورماندیا من الجنوب بدعوى احقيته ان يخلف ادوارد في الحكم ، وانتخب نبلاء البلاد هارولد كردوين ملكا . وانتصر هارولد على المهاجمين الفايكنك ، وسار الى الجنوب لملاقات وليم النورماندي عند بلدة هستنجز Hastings ووقعت معركة عرفت بهذا الاسم ، انتصر فيها الفرسان النورمان الذين كانوا يحاربون بالرماح والسيوف تساندهم فئات من رماة النبال على مشاة الانكليز الذين كانوا يحاربون بالطيرات والفؤوس وقتل هارولد نفسه في ساحة المعركة فتمت سيطرة وليم الفاتح.

وتعتبر معركة هستنجز من المعارك الفاصلة في التاريخ وذلك انها انهت عزلة انكلترا وربطتها ربطا محكما بمجرى الاحداث السياسية في القارة الأوربية وبالتيارات الثقافية والحضارية لتلك القارة. كما انها أخضعتها لحكم قوى وكفؤ بشكل متميز. وقد حقق ذلك الحكم خلال جيلين فقط تغيرا سياسيا واقتصاديـا واجتماعيا جذريا في الحياة الانكليزية وطور من المؤسسات والانظمة ما ان اصبحت انكلترا معها تسبق بقية الاقطار الأوربية بمراحل كثيرة بعد ان كانت مختلفة عنها، كما ان تلك المؤسسات والمنظمات تمثل الجذور البعيدة للاجهزة السياسية والادارية للبلدان الناطقة باللغة الانكليزية في الوقت الحاضر.

وقبل الكلام من الحكم النورماندي لانكلترا ، يحسن بنا اعطاء نبذة عن المؤسسات والأوضاع التي كانت سائدة فيها قبل ذلك ، الا ان هؤلاء ابقوا على الكثير من تلك المؤسسات والأوضاع التي كانت سائدة في عهد الانكلو سكسون بعد ان حرروها بالشكل الذي يتلائم مع مصالحهم من ناحية ويتمشى مع الظروف والأحوال المتطورة من ناحية الخرى.

كر فانكلترا التي كان يحكمها ملوك ويسيكس في القرن العاشر تتألف اداريا من اربع وثلاثين ولاية تسمى الواحدة منها شاير اوكاونتي (County) وقد وضعت كل واحدة منها تحت اشراف مشترك من اسقف(Bishop) ونبيل (ايرل)(Earl) وشرف (Sherift)) يمثل الأول الكنيسة ويمثل الثاني النبلاء ويمثل الثالث الملك والنبلاء، وكان في كل كاونتي محكمة تسمى محكمة الكاونتي (Courty Court) ويحضر اصحاب الأراضي جميعا اجتماعات هذه المحكمة،

وهي هيئة قضائية بالدرجة الأولى مع قيامها بالاشراف على بعض الامور الادارية احيانا. أما القانون الذي كان يحكم به فهو القانون الجرماني من حيث الأساس ذلك القانون الذي يستند على العرف والتقاليد الموروثة. وكانت وسائل الاثبات بدائية وكانت المحاكمة بواسطة المحنة هي السائدة وهذه المحاكم تنظر في جميع القضايا المدنية والجنائية الدينية والدنيوية. وتنقسم كل كاونتي الى وحدات اصغر منها تعرف بالمئات (hundreds) وكل مئة تنقسم بدوارها الى وحدات صغيرة تعرف بـ هايد (Hides) او قرية. كل قرية تقرب مساحتها من ١٢٠ ايكر. وكانت المدن قليلة في انكلترا في عهد الانكلو سيكسون ولعل أهمها لندن ويورك و برستول، وهناك مدن اخرى اصغر من هذه هي القصبات ولكن الحياة كانت ريفية بحملتها. وينقسم المجتمع في عهد الانكلو سكسون الى طبقات اجتماعية عديدة وهذا التقسيم مماثل بشكل عام ما كان سائدا بين الشعوب الجرمانية في القارة الاوربية . فكان هناك المحاربون والفلاحون والعبيد.

وعندما جاء النورمانديون قسموا المجتمع إلى طبقتين فقط هما الاحرار والعبيد. اما الجهاز الاداري والبلاط ، فكان بسيطا جدا ، ويشبه الى حد كبير الادارة الملكية عند الكارولنجيين . اذ يتألف من بضعة موظفين منهم رئيس الخدم والمسؤول عن الاسطبل والحاجب وبعض المستشارين (Chancellers).

وهناك مجلس كبير يضم مستشاري الملك وكبار نبلاء المملكة يعرف ب (وايتان). وهو اكبر مجلس في البلاد يدعى من قبل الملك للتشاور. ولكن عضوية هذا المجلس ووظائفه كانت غامضة وغير محددة.

وتعتمد موارد الملك المالية على دخله من اراضيه الخاصة ومن الضريبة المعروفة باسم (الدانكل) (Dangeld) ومن الغرامات التي تفرضها المحاكم حيث يحصل الملك على ثلثي تلك الغرامات. ومن ضريبة تعرف بضريبة حق الطعام ، وكانت هذه الضريبة تدفع عينا في عهد الانكلو سكسون ، ولكن النورمانديين حولوها إلى ضريبة نقدية.

الفتح النورماندى – وليم الفاتح :

وبالنسبة الى وليم الفاتح نفسه فهو من الشخصيات المهمة في تاريخ العصور الوسطى وهو في الاساس تابع اقطاعي (Vassal) لملك فرنسا وذلك بصفته حاكما لنورماندیا وقد ابقى وليم على الكثير مما خلفه الانكلو سكسون من ترتيبات رأى فيها تعزيزاً للسلطة الملكية ، وادخل ترتيبات اخرى تأكيدا لهذا الاتجاه . لقد وضع وليم نصب عينه هدفا مهما وهو تقوية السلطة الملكية على حساب نبلاء المملكة الدينيين منهم والدنيويين .

لقد اعتبرت جميع القلاع في انكلترا منذ البداية قلاعا ملكية ، ومنع بناء اية قلعة جديدة الا بموافقة الملك ، ومنع وليم منعا باتا الحروب الخاصة ، وهي تلك الحروب التي اعتاد ان يشنها النبلاء ضد بعضهم البعض واعتبر سك النقود من امتيازات الملك الخاصة لا يجوز التجاوز عليها.

اما الاقطاع الذي طبقه وليم في انكلترا فقد كان نموذجا لمفهوم الاقطاع في العصور الوسطى ، فبحق الفتح اعتبرت جميع اراضي انكلترا ملكا للمك ومن ثم بدأ بتوزيعها على كبار اعوانه او ما يعرفون بالاتباع المباشرين (tencnt–in–Chief) وكان عددهم مائة وسبعين نبيلا وقام هولاء الاتباع المباشرون بتوزيع مالهم من اراضي على اتباعهم وهكذا ، ولكن وليم الزم الجميع باداء يمين الولاء المباشر له دون سواه وهذه سابقة وميزة تميزت بها الملكية في انكلترا عما سواها في الاقطار الاوربية الاخرى خلال العصور الوسطى.

وابقى وليم على ضريبة الدانكل والضرائب الاخرى التي كانت موجودة في عهد الانكلوسكسون كما ابقى على محاكم الولايات ولكنه زاد من سلطة " الشرف" فصار هذا موظفا حكوميا ممثلا الملك فقط وتحت اشرافه المباشر. وعلاقة وليم بالكنيسة لها هي الاخرى اهمية خاصة ، فقد منع الاخذ باي امر بابوي دون مصادقة الملك عليه ، كما منع تطبيق عقوبة الحرمان على اي موظف انكلترا دون موافقة الملك والاكثر اهمية من هذا ان الكنيسة الانكليزية لا تعترف باي بابا دون مصادقة الملك. وعندما طلب غريغوري السابع حق السيادة البابوية على انكلترا رفض طلب،ولم يكتف وليم بتعيين الاساقفة وروساء الاديرة فحسب ، بل انه رسم لهم واجباتهم الدينية والدنيوية.

واجرى وليم اصلاحات كثيرة في الكنيسة في انكلترا ، فقد فصلت المحاكم الدينية عن الدنيوية ، واكد الحفاظ على المستوى الخلقي الرفيع لرجال الدين. وشجع على الاكثار من عقد المجامع الدينية ، واكثر من بناء الكنائس والأديرة والكاتدرائيات . ويبدو ان الكنيسة في انكلترا شهدت في عهد وليم الفاتح اصلاحات شاملة ، شأنها بذلك شأن الاجهزة الادارية والحكومية الأخرى.

وحل في عهد وليم مجلس الملك(Curia regis) محل (وايتان) الانكلوسكسوني ومجلس الملك هذا هو مجلس اقطاعي يتالف من كبار الاقطاعيين او الاتباع المباشرين للملك وكبار الموظفين . ويجتمع مجلس الملك ثلاث مرات في العام. ويمكن ان يدعي الى الاجتماع في اي وقت يشاؤه الملك. وفي اجتماع طارى من هذا النوع في سالسيري عام ١٠٨٦ فرض وليم الأول على جميع الحاضرين اداء يمين الولاء الاقطاعي له.

لقد كان مجلس الملك هذا يعمل كمجلس استشاري للملك في الوقت نفسه كان يعالج امورا وقضايا خاصة بكبار الاقطاعين او الاتباع المباشرين ، وفي هذه الحالة يصدر الحكم باسم المجلس وليس باسم الملك. ولعل من اهم انجازات وليم الفاتح الاخرى قيامه باجراء مسح شامل لموارد انكلترا البشرية والاقتصادية في كتاب دومزدي (Domesday book) وهذا المسح الذي قام به وليم الفاتح هو الاساس للتنظيمات الادارية التي وضعها الملوك النورمانديون. والحقيقة انه مفخرة من مفاخر انكلترا في العصور الوسطى . فقد جاء فيه تقدير لموارد البلاد المالية واحصاء لسكانها وما يملكون من اراضي زراعية وانتاج تلك الاراضي وما لديهم من حيوانات. كما كان فيه تقدير لما كان يدفعه الناس من ضرائب قبل مجيء النورمانديين وما كانوا يدفعونه بعد الفتح النورماندي. ويقول المؤرخ أ . ل . راوس عن هذا الكتاب بانه اعظم سجل وصفي في اوربا في العصور الوسطى ، ولا سيما اذا اعتبرنا الظروف التي تم فيها ، ولما يمضي على فتح انكلترا سوى عشرين سنة. واعتبرنا ايضا مبلغ ما فيه من دقة وتفصيل .

تطور الاجهزة الادارية والقضائية في القرن الثاني عشر

توفي وليم الفاتح عام ١٠٨٧ وخلفه ابنه الاكبر روبرت في حكم نورماندیا وابنه الاصغر وليم الثاني في حكم انكلترا . وقد حكم الاخير ثلاث عشرة سنة وتميز حكمه بالقسوة وسوء المعاملة للنبلاء ورجال الكنيسة . وقتل بطريقة يكتنفها الغموض وخلفه اخوة الصغير هنري الأول.

هنري الاول (١١٠٠ – ١١٣٥) وفي عهد الملك هنري الاول ، خطا النظام الاداري والقضائي خطوات مهمة نحو الامام – فقد ازدادت اهمية المحاكم الملكية وقل شأن المحاكم الاقطاعي وكثر عدد الحالات والقضايا التي تعرض امام مجلس الملك. وكانت العادة في عهد وليم الفاتح ان ينتقل هذا المجلس مع الملك اينما ذهب ، فصار يرسل وكلاء عنــه كقضاة متنقلين للاستماع الى دعاوى قضائية في اماكن لا يصل اليها الملك.

لقد ظهرت المحاكم الملكية في طول البلاد وعرضها للنظر في القضايا المدنيـة والجنائية المعرضة امامها وشاع استخدام ما يسمى بالرت (Writ)) وهذا امر ملكي خاص يحصل عليه المرء فيستطيع بموجبه سحب قضيته المعروضة امام المحكمة الاقطاعية وعرضها امام محكمة ملكية .

ومن الأمور البالغة الأهمية التي برزت للوجود في عهد هنري الأول تطور ما يعرف بالقانون العام والمقصود به مجموعة القوانين السارية في انحاء المملكة عامة.

والقانون العام بهذا يختلف عن القوانين المحلية والمراسيم المؤقتة والعرف المحلي كما يختلف عن القوانين الكنيسية (The Canon LOW) انه قانون الملك الذي يتجاوز الطبقات ، ويتجاوز العادات والتقاليد المحلية. فهو ينطبق على جميع سكان البلاد بصرف النظر عن انتماءاتهم العنصرية والطبقية. انه في الاساس يستند على القوانين المحلية والعرف والتقاليد ، ولكنه حور ليتلائم مع مقتضيات تطور المجتمع الانكليزي. وصار في نهاية الامر مصدرا للسلطة بدلا من ان يكون معبرا عن رغبات الملوك. لقد ساد الامن والعدل ارجاء انكلترا في عهد هنري الاول حتى اطلق عليـه اسد العدالة، وقيل ان المرء يستطيع ان يسافر من محل إلى آخر ومعه كيس كبير من الذهب دون خوف او وجل. وهذا امر لم يكن اعتيادي خلال العصور الوسطى في اوربا.

وطرأ تغير على الجهاز الإداري ايضا . فقد صار اكثر تعقيدا فالى جانب مجلس الملك الذي كان يضم كبار رجال البلاد وكبار الاقطاعيين والذي يجتمع ثلاث مرات العام أو عندما يستدعي من قبل الملك. ظهر الان مجلس آخر مصغر مؤلف من مستشاري الملك ورجال البلاط فقد كان هذا ملازما للملك بشكل دائم. ومن هذا المجلس الصغير بالذات تطور الجهاز الاداري والجهاز القضائي في انكلترا فقد تشعبت اختصاصاته ومن تلك الاختصاصات برزت الوزارات المختلفة ، واخذ الجهاز الوظيفي في النمو والسعة والتعقيد منذ ذلك العهد والى يومنا هذا . والحقيقة ان ذلك المجلس الصغير يمثل الأصول البعيدة للوزارات والانظمة الادارية النى نراها الآن ليس في انكلترا فحسب، بل في جميع الاقطار الناطقة بالانكليزية.

واعقبت وفاة هنري الأول حالة من الفوضى وفقدان الامن استمرت لمدة تسع عشرة سنة . كادت ان تبعثر خلالها وتضيع جهود وليم الأول وهنري الأول في بناء البلاد. ولم يكن لهنري الأول ولد ليخلفه على العرش ، فاوصى بالعرش لابنته " ما تلدا " (Mtilda) واخذ كل العهود اللازمة من نبلاء المملكة بالاخص لها . ولكن اغلب اولئك النبلاء خشوا بعدهم بعد وفاة هنري فتنكروا لابنته " ما تلدا " وايدوا ستيفن (Stephen) ابن اخت هنري، الذي استطاع دحر ماتلدا والاستيلاء على العرش. ولكن الامر لم يستقر للملك الجديد فقد تمرد عليه عدد من نبلاء المملكة مدافعين عن حق ما تلدا بالعرش الانكليزي. فنشبت من جراء ذلك حرب اهليه مدمرة استمرت حتى عام ١١٥٣ حيث تم التوصل الى وضع اتفاقية بين الاطراف المتنازعة اقتضت باحتفاظ ستيفن بالعرش على ان يخلفه هنري الثاني ابن ماتلدا وتوفي ستيفن بعد عام واحد فقط من عقد الاتفاقية فاعتلى هنري الثاني العرش الانكليزي.

المحاضرة الثالثة عشر

(حكم هنري الثاني ١١٥٤ – ١١٨٩)

هنري الثاني وهو من اعظم ملوك انكلترا ، بل واوربا في العصور الوسطى. وهو ابن ماتلدا بنت هنري الأول ، وابوه كونت جيفري أمير انجو في فرنسا. ورث هنري الثاني انكلترا ونورماندیا ومين من امه وورث دوقيتي انجو وتورين من ابيه. وفي عام ١١٥٢ تزوج هنري الثاني من ايبنور وريثة عرش اوكتين. وهكذا امتدت املاكه واملاك زوجته عبر انكلترا وفرنسا من حدود اسكوتلندة الى جبال البرنس. مع كل هذا فقد كان هنري الثاني تابعاً اقطاعيا لملك فرنسا بصفته دوق نورماندیا تميز عهد هنري الثاني بازدياد السلطة الملكية على حساب النبلاء وتطور الادارة والقضاء ومـن ناحية القضاء يلاحظ ان هنري الثاني عزز المحاكم الملكية ووسع مجالات اختصاصها على حساب المحاكم الاقطاعية التي كان يسيطر عليها النبلاء (او البارونات كما يسمون في انكلترا واكثر هنري من اصدار الاوامر الملكة القضائية – الرت التي سبق الكلام عنها.

ومنذ عهد هنري صار استخدام المحلفين (juries) من الأمور الشائعة في انكلترا. ويعتبر نظام المحلفين حتى وقتنا الحاضر من الامور الاساسية والمميزة للقضاء في كل البلدان الناطقة بالانكليزية.

وجذور المحلفين البعيدة قد ترجع الى عهد الامبراطورية الرومانية اما اصوله الحديثة فتعود الى النورمانديين والى هنري الثاني بالذات وقد يكون اخذة هؤلاء عن الفرنجة. ونظام المحلفين بعبارة مختصرة نوع من التحقيق الجنائي يستند الى القسم والواقع. ان حالة الفوضى التي سادت انكلترا قبل مجي هنري الثاني وانتشار الجرائم والقتل والنهب وقطع الطرق التي شهدتها انكلترا في عهد الملك ستيفن السابقة. لهنري الثاني دفعت الاخير الى محاولة ارجاع النظام ومطاردة المجرمين وقطاع الطرق . ففي عام ١١٦٦ اصدر هنري اوامره بجمع اثنا عشر رجلا من كل مئة واربعة رجال من كل قرية ، على ان يؤدي كل هؤلاء اليمين امام محكمة الملك المتجولة ثم يخبروها باسماء جميع المشتبه بهم من اولئك الذين سبق ان عكروا صفو الامن في الماضي ، أو من المحتمل ان يعكروه في المستقبل. هذه هي البداية لنظام المحلفين في عهد هنري الثاني ثم تطور النظام فصار يشمل النظر في القضايا المدنية كمشكلات الاراضي والنزاع حولها. ففي هذه الحالة يجمع اثنا عشر رجلا فيؤدون اليمين ، ثم يدلون بآرائهم في القضية المطروحة امام المحكمة ، على ان يكونوا على المام كبير بها.

وفي البداية الأمر لم يكن الأمر واضحا بين المحلف (Jurar) والشاهد (witness) وبمرور الزمن صار هناك تميز واضح بين الاثنين فصار المحلف الذي يختار من اواسط الناس في المنطقة ،

يجلس في المحكمة وهو ينطق بالحكم ولا يقرر العقوبة فهذه أمور يختص بها القاضي ، كما ان المحلف لا يدلي بشهادة خلال المحكمة. ان عليه ان ينصت ليستمع الى ادلة الاتهام والدفاع المطروحة امام المحكمة. واخيرا يدلي باستنتاجه بناء على كل ما سمع ورأى خلال . المحاكمة ، فيما اذا كان المتهم بريئا ام مذنبا.

والحقيقة ان انتشار نظام المحلفين كان كسبا للمحاكم الملكية وهذا بحد ذاته فيه تعزيز للسلطة الملكية واضعاف لسلطة البارونات الانكليز. وفي عهد هنري الثاني ازداد استخدام القانون العام ، والرجوع اليه واعتماده.

الخلاف مع الكنيسة :

وادي اصرار هنري الثاني على تأكيد وتعزيز السلطة القضائية الملكية الى نشوب صراع خطير بينه وبين الكنيسة والحقيقة ان الفتح النورماندي لا نكلتسرا قد ادى الى تقارب اكثر بين هذه البلاد وروما . وازداد عدد وتأثير المحاكم الكنسية التي يستند القضاء فيها الى القانون الكنسي العام (The Conon Law) وهكذا بمرور الزمن صار لا نكلترا نظامان قضائيان رئيسيان الأول يستند الى القوانين والمحاكم الملكية والثاني يستند الى القوانين والمحاكم الكنيسية وكان هناك مجال كبير للاختلاف والتصادم بين هذين النظامين خاصة حول القضايا ذات الطبيعة المتداخلة ومن الامثلة على ذلك قضية معاقبة رجال الدين المحكومين او الذين تثبت ادانتهم امام المحاكم الكنسية. فقد رأى هنري الثاني ان رجال الدين المدانين امام محكمة كنسية يجب احالتهم مرة اخرى الى محكمة ملكية لتقرر هذه بدورها العقوبة اللازمة . ورفضت الكنيسة تقديم رجالها الى محكمة دنيوية .

كان توماس بيكيت (Thomas Becket) على رأس الكنيسة الانكليزية ، اي كان يشغل منتصب رئيس اساقفة كينتربري وكان في الاصل صديقا

حميما للملك هنري واحد مستشارية المقربين. وقد رفعه هنري نفسه الى منصب رئيس اساقفة كنتر برى. وقد ظن الملك انه يستطيع تسخير بيكيت لتحقيق اهدافه وتنفيذ سياسته. ولكن بيكيت كان نموذجا خاصا من الرجال يتميز بالتفاني المطلق والاخلاص في كل عمل يعهد به إليه. لقد وافق بيكيت في البداية على مشروع الملك الخاص بتقديم رجال الدين الى المحاكم الملكية ، بعد ان وضع تحفظات كثيرة. ثم عاد وسحب موافقته وعندما اضطهد فر الى فرنسا وقضى سنوات عدة في المنفى وتحسنت العلاقات ظاهريا بين الملك وبين رئيس اساقفته ، فرجع الاخير الى انكلترا ولكنه سرعان ما لقي حتفه على يد اربعة من فرسان الملك.

لقد هزت هذه الجريمة انكلترا واوربا عامة . واحرج موقف هنري الثاني وقد اقسم امام مندوب البابا بانه برئ من الجريمة وانه لم يكن له ضلع فيها باي شكل من الاشكال. واضطر هنري الثاني وهو امام هذا الهياج العام الذي سببه مصرع بيكيت الى التنازل عن مشروعه الخاص في محاكمة رجال الدين امام المحاكم الملكية .

لقد كرم بيكيت بعد وفاته واعتبرته الكنيسة قديسا من قديسي المسيحية وبني له ضريح كبير يحج اليه الناس من كل انحاء انكلترا وهكذا حقق بيكيت مماته ما عجز عن تحقيقه في حياته .

لم يكن هنري الثاني سعيدا في اواخر عمره فقد ساءت علاقاته مع اغلب الناس المحيطين به خاصة مع زوجته الينور ومع ولديه ريشارد وجون اللذين لم يترددا في التعاون مع ملك فرنسا في التآمر ضد ابيهما .

توفي هنري الثاني عام ١١٨٩ وورثه ابنه الاكبر ريشارد الاول الذي اشتهر باسم قلب الاسد. ولم يقض ريشارد في انكلترا سوى ستة اشهر فقط من فترة حكمه التي بلغت عشر سنوات ، فقد كان مشغولا في مشاريعه السياسية في القارة الاوربية وفي مساهمته في الحروب الصليبية.

انكلترا في القرن الثالث عشر : الطريق الى الماكنا كارتا – نمو البرلمان :

ان ملوك انكلترا منذ الفتح النورماندي في الاساس هم اتباع اقطاعيون لملك فرنسا. فوليم الفاتح الذي غزا انكلترا واستولى عليها كان في الاصل دونا لنورمانديا وهذه ولاية اقطاعية فرنسية والواقع ان وليم الفاتح وابناءه واحفاده كانوا يملكون ثلثي ارض فرنسا بل انهم كانوا يملكون من القوة والنفوذ ما يفوق كثيرا ما كان يملكه ملك فرنسا المغلوب على امره مع انه سيدهم من الناحية النظرية فهم لا يعدون ان يكونوا تابعين اقطاعيين له طالما كانوا يملكون ولاياتهم الاقطاعية في الارض الفرنسية. ولكن الوضع اخذ في التغير منذ اوائل القرن الثالث عشر . اذ لم يستطيع خلفاء هنري الثاني الحفاظ على املاكهم في القارة الأوربية واخذوا يخسرون تلك الاجزاء واحدا بعد آخر. ولم يخسر ملوك انكلترا وحدهم املاكهم في فرنسا والقارة الأوربية بل ان البارونات الانكليز خسروا هم ايضا اقطاعياتهم والكثيرة هناك . وذلك بزوال نفوذ ملوكهم منها وهذه التغييرات في وضع ملوك انكلترا و باروناتها في القارة الأوربية ادت الى حدوث تطورات سياسية ودستورية مهمة في انكلترا نفسها فقد جعلت من الفريقين الملوك والبارونات ، اكثر تعلقا بانكلترا وفي كل ما لهم فيها من حقوق وامتيازات مصممين في الحفاظ عليها وعدم السماح بتجاوزها من قبل الفريق الآخر.

وهذا الموقف المتشدد لكل من الملك والبارونات في الحفاظ على ما في بدية ادى في نهاية الامر الى مجابهة عنيفة بينهما وذلك عندما رأى الملك جون الأول ١١٩٩ – ١٢١٦ في تصرفات بارونات مملكته تحديا للسلطة الملكية . وعندما اعتقد اولئك البارونات في الوقت نفسه ان في سياسة الملك تعسفا وتجاوزاً لامتيازاتهم وحقوقهم الموروثة .

الصراع بين جون الأول والبارونات :

اقترن اسم الملك جون الأول ١١٩٩ – ١٢١٦ بالطغيان والاستبداد ووصف بالعجز والضعف . وقد يكون هناك الشيء الكثير من الصواب في كل ما قبل عنه ووصف به. ولكن في الوقت نفسه قد تكون هناك بعض المبررات لتصرفاته . لقد اتهم جون بالتعسف والابتزاز ومحاولة الحصول على المال بكل الطرق. وكان هذا الاتهام صحيحا من غير شك ولكن جون كان بحاجة ماسة الى المال فكان لا بد له من توفيره بكل الوسائل. لقد كان الجهاز الاداري في توسع مستمر ، ويعني زيادة مستمرة في النفقات ثم ان الحروب التي كان جون متورطا بها في فرنسا وفي القارة الاوربية ضاعفت من احتياجاته المالية وكانت مدخولاته من اراضيه ومن الضرائب القديمة لا تفي بالغرض ولا تتلائم مطلقا مع الاحتياجات المالية الجديدة. فلا بد له والحالة هذه ان يفرض ضرائب جديدة. اما الكلام عن ضعفه و عجزه ، فقد يكون من الانصاف القول ان حظه السيء جعله في حالة صراع وخلاف مع اقدر رجلين في اوربا في عصره هما فليب اوغسطس ملك فرنسا والبابا انوسنت الثالث وكان عجزه يبدو واضحا فعلا اذا ما قورن بهذين الشخصين المتميزين بالكفاة والقوة. لقد كانت الضرائب هي الموضوع الرئيسي للصراع بين الملك جون الأول والبارونات الانكليز. وبينما كان النزاع على اشده بين الطرفين ، تورط الملك بصراع اخر مع البابا انوسنت الثالث . وكان هذا بسبب اقدام البابا المذكور على اختيار ستيفن لانكتون Langton (Stephen) لمنصب رئيس اساقفة كنتربري. وكان الاختيار بحد ذاته جيدا ، نظرا لما عرف عن لانكتون من كفاة واستقامة ، ولكن جون اعتقد ان فيه تجاوزا على السلطة الملكية، اذ جرت العادة ان يقوم الملك في انكلترا باختيار الاساقفة للكنائس الانكليزية . وهكذا رفض جون تعين ستيفن لانكتون ، وبادر الى مصادرة املاك الكنيسة متجاهلا قرار الحرم الذي اصدره البابا ضده، بل ذهب الى ابعد من هذا فعمد الى الانتقام من جميع البارونات الذين انصاعوا الى قرار الحرم البابوي ، واحتجز ابناء وبنات البعض منهم كرهائن لضمان ولاء الاباء وطاعتهم. واخذ البارونات بطبيعة الحال يكيدون للملك ويتآمرون اوغسطس ملك فرنسا ضد ملكهم. واستغل البابا هذه الظروف فاعلن خلع الملك جون واحل البارونات من كل عهد اعطوه له.

واضطر جون ، وقد أحاطت به المصاعب من كل جانب الى التراجع امام البابا انوسنت الثالث عام ١٢١٣ . لقد قبل الملك ستيفن لانكتون رئيسا لاساقفة كنتسر برى ، وذهب الى ابعد من هذا فقبل اعتبار مملكته كلها اقطاعاً بابويا واعتبر نفسه تابعا اقطاعيا للبابا. وتعهد بدفع ١٠٠٠ مارك سنويا الى البابا ، وكان جون يرمي من وراء كل هذا مهادنة البابا للتفرغ للحرب مع ملك فرنسا ولتأديب البارونات الانكليز المتآمرين. ولكن جون اندحر امام فيليب اوغسطس ، فتحطمت قواته في القارة الأوربية ، وضاع ما تبقى من ممتلكاته هناك ، واضطر الى الرجوع الى انكلترا يجر وراءه ذبول الخيبة والخسران.

وتلقى البارونات الانكليز سيدهم وقد رصوا صفوفهم واجمعوا امرهم. وانضم اليهم تجار المدن ورجال الدين. فلم يعد باستطاعة جون ان يعمل شيئا سوى الخضوع لهم والاستسلام لمطالبهم. وضمن البارونات مطالبهم كلها في وثيقة مهمة اشتهرت في التاريخ باسم الماكنا كارتا أو العهد الاعظم (magna–carta) وقد وقع الملك جون هذا العهد في عام ١٢١٥.

كثر الكلام عن الماكنا كارتا، وقد تناولها الباحثون والمؤرخون في التحليل والتعليق من كل زاوية منذ صدورها والى يومنا هذا. وتحتوي الوثيقة على ثلاث وستين فقرة اكثرها تخص امتيازات النبلاء وهناك فقرات قليلة تخص رجال الدين ومثلها لتجار المدن . ولكن فيها عشر فقرات جاءت لتحدد وتوضيح صلاحيات المحاكم الملكية.

فقد نصت المادة (١) على ان تحتفظ الكنيسة بحقوقها وامتيازاتها كاملة وكان هذا يعني منع الملك من التدخل في انتخاب الاساقفة والرهبان. ونصت المواد: (٢و١٢ و ٤٣) على عدم انتهاك القوانين الاقطاعية وفي جمع المال. ونصت المواد ٣ – ٦ على احترام اموال واقطاعيات الارامل والايتام . ونصت المادة ٤١ على حماية التجار . ونصت المواد ٤٤ و ٤٧ و ٤٨ على ايقاف استغلال الملك السيئ للغابات و نصت المواد ٤٩ و ٥٠ و ٥١ على تسريح لجميع جنوده المرتزقة ، وارجاع جميع الرهائن التي يحتفظ بها الملك جون الى اهليهم وذويهم ونصت المادة ١٣ على احترام الملك لجميع الامتيازات والحقوق التي كان يتمتع بها سكان لندن وغيرها من المدن الانكليزية ونصت المواد : ١٨ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٨ ، و ٣٠ و ٣٨ و ٤٥ على قيود خاصة للسيطرة والاشراف على رجال الملك وموظفي البلاط.

لقد اعتبر الماكنا كارتا من قبل الكثرين الاساس للحقوق والحريات السياسية في هذا الشيء الكثير من الصحة . ولكن الشيء الذي يجب ان لا يغرب عن البال. ان الماكتا كارتا وثيقة اقطاعية في جوهرها. صاغها سادة اقطاعيون للمحافظة على حقوقهم ضد تجاوزات الملك. انها في الواقع ليست وثيقة ثورية

كما يصورها البعض ، انها وثيقة اقطاعية ، بل انها وثيقة رجعية ، طالما انها اكدت حقوق البارونات اكثر من تأكيدها اي شئ آخر. وهي قد جسدت الذهنية الاقطاعية والنظام الاقطاعي القائم على العلاقات الاقطاعية التعاقدية. فالامر بالنسبة الى البارونات لا يعدو أن يكون سيدهم الملك او المتبوع قد اخل بشروط التعاقد التي تربطه بهم و هم التابعون ، فكان عليهم ايقافه عند حده ومنعه من بعده من الملوك من التجاوز على حقوقهم الاقطاع التعاقدية. اما حقوق الشعب وحرياته فلم تكن تخطر ببال أولئك الذين صاغوا عبارات الماكنا كارتا ، على ان الاجيال التالية اخذت تفسر الوثيقة تفسيرا تفيد منه الطبقات الصاعدة في المجتمع ، ومن ثم ابناء الشعب عموما.

على اية حال فان الماكنا كارتا ذات اهمية كبيرة من نواح عدة فهي من ناحية تجسد مشاكل العصر الذي صدرت فيه ، وتمثل الوسيلة التي فكر بها المعاصرون لمعالجة تلك المشاكل. ثم ان الظروف التي كتبت فيها الوثيقة والكلمات التي صيغت بها فقراتها اعطتها اهمية خاصة بالنسبة للاجيال اللاحقة . فمثلا التأكيد بان الملك عرضه الى المحاسبة والسؤال من قبل اتباعه البارونات قد تكون الاساس لفكرة الملكية المقيدة كما ان هذه الفقرة لا يجوز توقيف احد من الرجال الاحرار وسجنه وعزله واعلان خروجه على القانون او معاقبته او الاساءة اليه او استدعائه الا بمحاكمة عادلة يجريها نفر من انداده الاحرار وفقا للقوانين السائدة في البلاد، تكفي هذه لاظهار اهمية الماكتا كارتا عنما ان كلمة الرجل الحر التي وردت فيها كانت مرادفة للبارون في ذلك الوقت ، ولكنها صارت تعني على مرور السنين كل الناس. كما ان كلمة الحريات (Liberties) التي ترددت كثيرا في ثنايا وثيقة الماكتا كارتا كانت تعني امتيازات النبلاء على وجه التحديد ولكنها خلال القرون التالية اخذت تعني الحريات بمعناها الواسع الحالي.

المحاضرة الرابعة عشر

(فرنسا وانكلترا وحرب المائة عام)

كان اعتلاء عائلة كابيه العرش الفرنسي (٩٧٨ – ١٣٢٨م) ونشوب حرب المائة عام أهم الأحداث التي شغلت التاريخ الفرنسي في العصر الوسيط، ويعتقد البعض أن الحرب في واقعها كانت سجالاً بين فرنسا وانكلترا منذ وفاة وليم الفاتح أو النورماندي (١٠٦٦-١٠٨٧م)، ولهذا فهم يقسمون تلك الحرب إلى مرحلتين:

الأولى: يشار لها بحرب المائة عام الأولى والتي تنتهي حسب رأيهم سنة (١٣٣٦م).

الثانية: هي التي امتدت خلال المدة (١٣٣٧-١٤٥٣م).

وقد سميت الحرب بتلك التسمية بمجرد الاصطلاح لأنها دامت في الواقع أكثر من قرن ولهذه الحرب أسباب غير مباشرة وأخرى مباشرة. ولعل من أهم الأسباب غير المباشرة:

- الخلاف المزمن بين ملوك الإنكليز والفرنسيين حول الأملاك الإنكليزية داخل فرنسا سيما مقاطعة الفلاندرز، ومشاكل دوقيتي أوكتين وبرغنديا.
- تحالف ملوك فرنسا مع زعماء سكوتلاند وتحريضهم على التمرد ضد الإنكليز.
- عمليات القرصنة الفرنسية والانكليزية في البحار الاقليمية.

أما الأسباب المباشرة فتكمن في موضوعين هما:

وراثة العرش الفرنسي:

فقد اعتبر ادوارد الثالث ملك انكلترا (١٣٢٧ – ١٣٧٧م) نفسه أحق بالعرش الفرنسي من فليب فالوا (الذي حكم فرنسا بعد أسرة آل كابيه) فقد ترك الملك الكابي فليب الرابع أو الجميل، ثلاثة أولاد حكموا بالتعاقب وهم لويس العاشر (١٣١٤-١٣١٦م) و فليب الخامس (١٣١٦ – ١٣٢٣م) وشارل الرابع (١٣٢٣– ١٣٢٨م). ولم ينحب أي منهم وريثاً لعرش آل كابيه.

وقد تزوج ادوارد الثاني من أختهم ايزابيلا فولدت ادوارد الثالث ملك انكلترا ولهذا فعند انقطاع حبل الوراثة لعائلة آل كابيه ادعى ادوارد الثالث أحقيته بالعرش الفرنسي من جانب امه إيزابيلا. غير أن الفرنسيين رفضوا ذلك الادعاء بعد أن تمسكوا بسابقة دستورية تشير إلى أنه لا يمكن لأية امرأة أن ترث عرش فرنسا، وعليه فلا يحق لإدوارد المطالبة بالعرش الفرنسي من جهة والدته. هذا مع العلم أن تلك السابقة الدستورية الفرنسية قد أشار إليها

القانون السالي الميروفينجي. وعليه فقد وقع اختيار أمراء فرنسا على فيليب فالوا لأنه أقرب وارث من الذكور لعائلة آل كابيه، فهو ابن أخ فليب الرابع أو الجميل.

مشكلة إمارة الفلاندرز:

هي من الإمارات التابعة لملوك فرنسا، وهي في ذات الوقت من الأسواق الهامة للصوف الإنكليزي. وكانت الإمارة في نزاع مستمر مع ملوك فرنسا. وحدث أن قامت بها ثورة سنه (١٣٣٧م) قادها أرباب معامل النسيج وذلك لانقطاع استيراد الصوف من انكلترا، بناء على أوامر الملك ادوارد الثالث لعلاقاته العدائية مع ملك فرنسا. لهذا تعاقد قادة الثورة مع ادوارد الثالث على أن يكونوا بجانيه حينما يعلن نفسه ملكاً على فرنسا، مقابل سماحه باستمرار التجارة بين الفلاندرز وانكلترا. وعلى أثر ذلك اندلعت نيران الحرب الأهلية في الفلاندرز، والتي انقسم فيها السكان إلى فريقين تألف الأول من الطبقة المتوسطة، أما الثاني فضم رجال الإدارة والإقطاعيين حلفاء ملك فرنسا وأصبح النزاع هناك سافراً بين الجيوش الإنكليزية والفرنسية. لذا أعلن فليب فالوا أو فليب السادس (١٣٢٨ – ١٣٥٠م) مصادرة كافة الممتلكات الإنكليزية في فرنسا.

لقد خسر الفرنسيون أول معركة بحرية هامة في هذه الحرب، وذلك سنة (١٣٤٠م) في موقعة سلويس. كما اندحروا في أول معركة برية كبرى سنة (١٣٤٦م) وهي معركة كريسي. واستولى الإنكليز على ميناء كاليه سنة (١٣٤٧م) وأنزلت الجيوش الانكليزية هزيمة ساحقة بجيوش الملك الفرنسي جون الصالح (١٣٥٠ – ١٣٦٤م) في موقعة بوانيه ووقع اسيراً بيد الجيوش الإنكليزية سنة (١٣٥٦م) التي كانت تحت قيادة الابن الأكبر لإدوارد الثالث الملقب بالأمير الأسود. فأصبح الملك شارل – ابن جون الصالح وصياً على العرش طيلة أسر والده خلال المدة (١٣٥٦ – ١٣٦٤م) وعانت فرنسا في تلك الفترة أهوالاً جساماً بسبب

- الفوضى واختلال الأمن، إذ كانت عصابات اللصوص وقطاع الطرق تعيث فساداً في الأراضي الفرنسية خالقة مصاعب للسلطات.
- انتشار وباء الطاعون الذي حصد ثلث الارواح الفرنسية.
- ثورات الفلاحين العنيفة بسبب سوء معاملة الاقطاعيين ونواب الملك الفرنسي وجامعي الضرائب لهم، فذهب ضحيتها جموع غفيرة من الناس.

وعلى اثر هذه الثورات أمر الوصي بانعقاد مجلس الطبقات لينظر في الأمر. ونظراً لعدم مقدرة النبلاء ورجال الدين على معالجة الوضع حاول الممثلون للطبقة المتوسطة انتزاع الحكم وقائد الطبقة المتوسطة هو إيتين مارسيل (Etienne Marcel) وهو تاجر من تجار باريس وأحد اعضاء مجلس الطبقات وأصدرت الطبقة المتوسطة عدة مراسيم في هذا الشأن سنة (١٣٥٧م) يُشار لها بالمراسيم الكبرى لكي يسير بموجبها الوصي في حكم البلاد. إلا

أن محاولة مارسيل هذه قد باءت بالفشل على أثر الشائعات التي دارت حول مارسيل بأنّه عميل لملك نافار حليف الإنكليز، وأنه من المتزعمين لثورة الفلاحين في فرنسا. لهذا نجح الوصي من اشعال ثورة ضده في باريس وأعلنه خائناً وأسفرت الحادثة عن مقتل مارسيل قائد الطبقة المتوسطة واستعادة الوصي لحقوقه الاستبدادية واخماد ثورة الفلاحين سنة (١٣٥٨م) بشدة متناهية.

وعلى إثر اخماد ثورة الفلاحيين توقفت الحرب مؤقتاً بين الإنكليز والفرنسيين بصلح بريتاني سنة (١٣٦٠م) الذي اعترفت فيه فرنسا بسيادة انكلترا على ثلث الأراضي الفرنسية. واتفق فيه على اطلاق سراح جون الصالح على أن يدفع فدية كبيرة. غير أن الأخير لم يتمكن من دفع الأموال إلى الانكليز لهذا سلّم نفسه ثانية اليهم، وبقي أسيراً في لندن حتى وفاته سنة (١٣٦٤م) وقد هيأت الظروف للملك الفرنسي شارل الخامس (١٣٦٤ – ١٣٨٠م) قائداً عسكرياً موهوباً هو برتران دو كسكلان (Bertram Du Guesclin) الذي حيّر الإنكليز بخططه العسكرية المبتكرة، وأحرز عدة انتصارات على الجيوش الإنكليزية حرر بها أكثرية الاراضي الفرنسية عدا بوردو وبايون وبرست وكاليه وشوريك.

ثم اصابت فرنسا انتكاسات شديدة على اثر وفاة شارل الخامس وذلك لان ابنه شارل السادس (١٣٨٠-١٤٢٣م)

كان في عمر الثانية عشر فأصبحت السياسة تسير بموجب أهواء أقاربه الذين طردوا الوزراء المخلصين من ذوي المواهب الذين ساسوا البلاد بحكمة أثناء حكم والده. وأخذت حاشية شارل السادس تنظر باحتقار إلى كبار رجالات الدولة الذين لم ينحدروا من أصول ارستقراطية، كما أنهم بددوا مالية الدولة في مشاريعهم الخاصة. ومع ذلك فقد حاول الملك عند بلوغه السن القانونية إصلاح ما أفسدته هذه الزمرة من أهله إلا أنه أصيب بمرض عقلي سنة (١٣٩٣م) أفقده الرشد. واستمرت سياسة فرنسا متعثرة طيلة عهود زمن الوصاية. فانقسمت البلاد في تلك الفترة بين فئتين متطاحنتين، الأولى تحت قيادة أمير برغندي جون الشجاع عضو مجلس الوصاية، أما الثانية فتزعمها أرماناك أمير أورليان. والسبب المباشر لهذا الانشقاق هو أغتيال الزعيم الأورلياني من قبل خصمه الأمير البرغندي ليخلو له الجو في مجلس الوصاية فاندلعت الحروب الأهلية في باريس وخارجها.

استغلت انكلترا الفرصة فاستأنفت الحرب في تلك الفترة الحرجة من تأريخ فرنسا في عهد الملك البريطاني هنري الخامس في وقت كانت فيه السيادة على العرش الفرنسي لفئة الأرماناك، وتمكّن هنري الخامس من دحر الجيوش الفرنسية في موقعة اجنكورت سنة (١٤١٥م) وذلك للدور الذي لعبته المدفعية الإنكليزية وبالرغم من انتصارات الإنكليز فإنَّ الحروب الأهلية في فرنسا بقيت على ما كانت عليه.

وقد اضطرت الفئة البرغندية إلى الاتفاق مع الإنكليز سنة (١٤١٩م) للانتقام من أعدائهم فئة الارماناك التي اغتالت هي بدورها جون الشجاع زعيم الفئة الأولى. وكان من بين المتعاونين مع الإنكليز ايزابيلا أم شارل السادس التي جعلت ولدها ضحية أخلاقية بتهتكها. وعليه فقد أصبح هنري الخامس وريثاً للعرش الفرنسي على أثر احتلاله باريس وعقده معاهدة تروي سنة (١٤٢٠م) مع الجانب الفرنسي .

ثم توفي كل من شارل السادس وهنري الخامس سنة (١٤٢٢م) ، فادعى هنري السادس ابن هنري الخامس ملك انكلترا أحقيته بالعرش الفرنسي، ولكن الفرنسيون رفضوا ذلك فالتف قسم من أمراء فرنسا حول شارل الملقب بالوصي والمطالب بالعرش الفرنسي. وهكذا فقد مثل الاحتلال الإنكليزي لباريس وتربعهم على العرش الفرنسي إهانة بالنسبة لمشاعر الفرنسيين، وكان الجو مهيئاً في دومرمي (Domremy) على حدود اللورين لقيام جان دارك تلك الشابة القروية التي خيل إليها أن القوى الإلهية أرسلتها لإخراج الإنكليز من بلادها، وتتويج شارل الوصي الوصي ملكاً في كنيسة ريمز. لقد تمكنت الفتاة من اقناع الوصي وحاشيته بأهمية الرسالة التي تحملها، فجهزها بجيش صغير دكت به أسوار مدينة اورليان التي يحتلها الإنكليز سنة (١٤٢٩م) ثم توجت جان دارك الوصي شارك فعلاً في كنيسة ريمز تحت اسم شارل السابع. وقد رغبت جان دارك في الانعزال بعد انتهاء مهمتها والذهاب لأهلها، فلم يسمح لها الملك بذلك واستمرت تكافح من أجله. وقد أثارت قيادتها للجيش الملكي الفرنسي حسد القادة وكبرياء الفرسان فسهلوا وقوعها أسيرة بيد أمير برغندي، الذي باعها إلى الإنكليز سنة (١٤٣٠م) وقد أصر هؤلاء على إحالتها إلى محكمة دينية أدانتها بالكفر والهرطقة، وقضت بإعدامها حرقاً سنة (١٤٣١م) ولها من العمر إحدى وعشرين سنة. وقد حرّك إقدامها على الموت رافعة الرأس موفورة الكرامة مشاعر المسؤولين عن حرقها فلم يتمالك أحدهم أن صاح بأعلى صوته "لقد خسرنا الحرب بإحراقنا قديسة". وكان سقوط أورليان نقطة التحول في حرب المائة عام. إذ حاول الإنكليز عبثاً ترسيخ أقدامهم بعد ذلك التأريخ في فرنسا، فقد سرت موجة وطنية عارمة في البلاد الفرنسية تمثلت سياسياً في شخصية رشمونت (Richmont) وزير شارل السابع الذي تمكن من اقصاء كافة الخونة من الحاشية الملكية. وتمكن الفرنسيون من استرداد باريس سنة (١٤٣٦م) وقد اضطر الانكليز إلى طلب الهدنة التي استمرت من (١٤٤٤– ١٤٤٩م) وقد استعد اثناءها الفرنسيون لاسترداد بقية اراضيهم وخاصة بعد أن تم الاتفاق بين زعيم البرغنديين فليب الصالح والملك الفرنسي شارل السابع. وما أن استؤنفت الحرب حتى كانت الانتصارات تتوالى على الفرنسيين ولم يبق بيد الإنكليز سنة (١٤٥٣م) غير ميناء كاليه.

المحاضرة الخامسة عشر

(الحروب الصليبية دوافعها – نتائجها)

مقدمة

الحروب الصليبية هي تلك السلسلة من الحروب التي شنتها اوربا المسيحية على البلاد العربية والتي بدأت في العقد الأخير من القرن الحادي عشر وامتدت لفترة قرنين تقريبا ١٠٩٦ – ١٢٩١ ، وهي نموذج للتوسع الاقطاعي الذي بدأ في القرن العاشر واستمر خلال القرون الثلاثة التالية ، بل وامتد الى العصر الحديث حيث كانت الحركة الاستعمارية الاوربية حلقته الختامية. فقد شهد القرن العاشر توسع المانيا الاقطاعية شرقا على حساب السلاف والمجريين والبلغار. كمـا شهد القرن الحادي عشر توسع النورمان في انكلترا وجنوب ايطاليا وصقليا (وهي تحت حكم العرب) ، وتوسع الدويلات المسيحية الاسبانية في شبه جزيرة ايبرية على حساب العرب والمسلمين.

ولكن التوسع الأوربي في الارض المقدسة يتميز في بعض اوجهه من ذلك الذي حدث في شرق اوربا وايطاليا وصقليا واسبانيا.

- ان احتلال القدس والاماكن الاخرى في سوريا وفلسطين يجسد في الظاهر بشكل تام فكرة الحرب الدينية . لقد كانت الكنيسة تشجع اتباعها دائما على محاربة المسلمين والهراطقة المسيحيين ، ولكنها في حالة الحروب الصليبية لم تكتف بالتشجيع بل تعدته الى تنظيم تلك الحرب والى الاشراف عليها وتوجيهيا.
- والدويلات المسيحية التي اقامها الصليبيون في سوريا وفلسطين لم تكن امتدادا للدول الاقطاعية الاوربية ، كما هي الحال في شرق اوربا وجنوبها ، بل ان تلك الدويلات كانت محطات ومراكز اوربية زرعت في محيط شرقي بعيدة جدا من مناطق انطلاقها ومفصولة عنها. ويصح وصفها بالمستعمرات ، فهي لا تختلف كثيرا عن المستعمرات الاستيطانية الاوربية في العصر الحديث ولا غرابة ان قال بعض المؤرخين انها اول عمل جدى الاستعمار الأوربي.

وفي الكلام عن الحروب الصليبية ، يجب الاخذ بنظر الاعتبار ، ان هذه الحروب لم تكن الا جزء من هجوم اوربي شامل على الوطن العربي والعالم الإسلامي وقد بدأ هذا الهجوم قبل الحروب الصليبية واستمر بعدها. لقد قام النورمان خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر بالهجوم على معاقل العرب في جنوب ايطاليا. كما هاجموا صقليا بصورة مستمرة بين عامي ١٠٦٠ و ١٠٩٠ واحتلوها وبذل الجنوبيون والبنادقة جهوداً متواصلة لتصفية القوة البحرية الاسلامية في البحر الأبيض المتوسط.

اما في اسبانيا فقد شرعت القوى المسيحية في التوسع على حساب العرب في كل اتجاه . فبعد وفاة الحاجب المنصور عام ١٠٠٢ اخذت الدويلات المسيحية في شمال اسبانيا ليون وكاستيل (قشتالة) واراغون ونافار تدخل في دور توســـع فسقطت طليطلة بيد الفونسو السادس القشتالي عام ١٠٨٥ واستولت الأراغون على سرقسطة عام ١١١٨. واستمرت حركة التصفية للوجود العربي في اسبانيا خلال القرون الثلاثة التالية .

وشملت هذه الحرب الشاملة ضد العالم الاسلامي اسيا الصغرى أيضا. حقا لقد كانت الحرب سجالا بين المسلمين والبيزنطيين منذ ظهور الاسلام ، الا ان الجديد في الأمر هو مساهمة المسيحيين الغربيين في هذه الحرب. فقد عرض كثير من الفرسان الأوربيين خدماتهم على الامبراورية البيزنطية . وجاء متطوعون للخدمة الجيش البيزنطي من اقطار اوربية كثيرة ومتباعدة . فكان هناك متطوعون مـــن اسكندنافية وايطاليا وانكلترة وفرنسا. وهكذا نرى ان الحروب الصليبية لا يمكن ان تفهم الا في اطار هذا الهجوم الاوربي الشامل على الوطن العربي والعالم الاسلامي. و سوف نتناول الحروب الصليبية من حيث هي حركة اوربية وتولف فصلا من تاريخ اوربا في العصر الوسيط ، ولهذا سيكون كلامنا عن المقاومة العربية وردود الفعل الاسلامية وحركات التحرير العربية ، موجزا ، فمجال ذلك في دروس التاريخ العربي الاسلامي

دوافع الحروب الصليبية

الدوافع الدينية:

دوافع الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة منها ما هي دوافع روحيـة دينية ومنها ما هي مادية دنيوية . وبالنسبة للدوافع الدينية فأن الكنيسة الغربية شجعت اتباعها بصورة مستمرة على محاربة المسلمين ، وقد اعتبرت القتال ضدهم حربا مقدسة يثاب عليها المـرء ودفع البابوات اتباعهم لطرد المسلمين من ايطاليا واسبانيا وصقلية . بل ان غريغورى السابع طالب بطردهم من اسيا الصغرى . واثار البابوات حماس الاوربيين بما كالوه لهم من وعود واماني . فعندما سأل بعض الاساقفة البابا جون الثامن فيما اذا كان اولئك الذين سقطوا في ساحة المعركة مؤخرا دفاعا عن كنيسة الله المقدسة ومن اجل سعادة وخير الديانة المسيحية والدولة المسيحية ، والذين سيسقطون في ساحات المعارك في المستقبل لنفس الغرض ، سيحصلون على الغفران اقتبس البابا في اجابته عن هذا السؤال نصا من الكتاب المقدس يتعلق بغفران الذنوب – لاولئك الذين تمت توبتهم . واضاف مؤكدا ان اولئك الذين يموتون في سبيل الكنيسة ومن اجل تعاليمها ستغفر لهم الذنوب جميعا.

ووفرت المتاعب التي يتعرض لها الحجاج المسيحيون الى بيت المقدس خلال – النصف الثاني من القرن الحادي عشر مبررا قويا للبابوات للدعوة الى حرب . والحج تقليد مسيحي قديم. فقد اعتاد المسيحيون منذ عهود المسيحية الأولى شد الرحال الى القدس والى اماكن معينة ذات صلة خاصة بحياة السيد المسيح او الحواريين او القديسين. والحج مظهر من مظاهر التقوى والصلاح. ووسيلة لنيل التوبة والغفران من خطايا معينة وذنوب عامة. وكانت روما من اماكن الحج المهمة ، ولكن الاهم منها بيت المقدس. فهنا قبر السيد المسيح ، وهنا الصليب الذي سمر عليه ، حسب الرواية المسيحية ، وهنا المواقع ذات الصلة بحياته مثل الناصرة وبيت لحم .

وازداد عدد الحجاج المسيحيين الى الارض المقدسة زياد كبيرة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر. ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة منها الحماس الديني الذى ولدته حركة الاصلاح الديني في اوربا في هذا الوقت والذي اججه الصراع بين البابوية والامبراطورية. ومنها الهدوء والاستقرار النسبي الذي ساد اوربا ، بعد تلك الفوضى التي سادت اوربا خلال القرنين التاسع والعاشر. ثم سلامة الطرق المؤدية الى الشرق . فقد اعتنق المجريون المسيحية حديثا وبذلك فتح طرق اواسط اوربا ، كما تمكن الفاطميون من حماية الملاحة في البحر الابيض المتوسط من خطر القراصنة وشجعوا الحج الى بيت المقدس لما يدره عليهم من ارباح طائلة تماما كما تشجع الحكومات في هذه الايام السياحة الى بلادها . ولكن طريق الحج ما لبث ان تعرض للمخاطر والمصاعب منذ أواخر القرن الحادي عشر بعد ان سيطر السلاجقة الاتراك على الطرق المؤدية الى الارض المقدسة ففي معاملتهم للحجاج الغربيين خالف السلاجقة نهج العرب الذين جبلوا على التسامح والود تجاه جميع الديانات والفئات . لقد اتخذت البابوية من معاملة السلاجقة – السيئة للمسيحيين ذريعة للدعوة الى الحرب الصليبية ووسيلة لاثارة حماس الأوربيين.

ثم جاء التهديد المباشر للدولة البيزنطية ، بل ولشرق أوربا بعد ان الحق السلاجقة هزيمة ساحقة بجيوش تلك الدولة في عام ١٠٧١ في معركة مانزيكرت. فقد خسر البيزنطيون نتيجة للمعركة كل اسيا الصغرى تقريبا وامتدت املاك السلاجقة حتى بلغت بحر مرمره. وافزع تقدم السلاجقة البيزنطيين الاوربيين على حد سواء وتقدم الامبراطور ميخائيل السابع الى البابا غريغوري السابع طالبا المساعدة واظهر البابا استعداده لنجدة الامبراطور البيزنطي. وخطط لحملة عسكرية تقوم باسترداد اسيا الصغرى واعادتها الى البيزنطيين مقابل قبول هؤلاء بدمج الكنيسة الشرقية بكنيسة روما. واعد غريغوري السابع فعلا جيشا لهذا الغرض. ولكن صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع حول مشكلة التقليد العلماني ، حال دون اتخاذه خطوة فعالة في هذا المضمار.

وواصل الامبراطور الكسيوس كومنين جهود سلفه، فتقدم في عام ١٠٩٥ بطلب للمساعدة الى البابا اريان الثاني. وكان هذا البابا فرنسي . وسبق له ان كـان راهبا في دير كلوني ، وساهم مساهمة فعالة في الحرب ضد المسلمين في اسبانيا وكان متحمسا لمواصلة الحرب ضد المسلمين في كل وقت وفي كل بقعة. وفي شهـر تشرين الثاني عام ١٠٩٥ حل البابا في كليرمونت في جنوب فرنسا. وفي اجتماع كبير ضم كبار رجال الدين والنبلاء ، القى خطابا هاما دعا فيه الى القيام بحرب صليبية . وطلب من الحاضرين بذل جهد فعال ومشترك لمواجهة خطر المسلمين ولحماية الاماكن المقدسة. لقد كان البابا حاذقا في اثاره حماس مستمعيه. وكان اغلب الحاضرين من الفرنسيين لذا فقد كلمهم بلغتهم. كانت دعوته ذات صبغة دينية بطبيعة الحال. فدعاهم الى نبذ الحروب الاقطاعية والتفرغ لما هو اهم واسمى. حثهم على نصره اخوانهم في الدين في الشرق فلتجر مراعاة هدنة الله في ارض الوطن ، وينبغي تجريد جيوش المسيحيين في حملة لقهر المسلمين ، ابتغاء الحصول على التوبة الكاملة التامة. ووعد البابا اريان الثاني جميع المساهمين في الحرب بالثواب والغفران. ولم يكتف البابا بكل هذا بل اثار اطماعهم بما قدمه لهم من صورة جذابة للارض التي سيقدمون عليها فقد وصفها ببلاد العسل واللبن. وتحمس الحاضرون لدعوة الحرب وهتفوا جميعا هكذا اراد الله واندفع الكثيرون معلنين استعدادهم للمساهمة في تحرير الارض المقدسة وحدد يوم ١٥ تموز عام ١٠٩٦ موعدا لرحيل المحاربين ، كما عينت القسطنطينية مكانا لالتقاء جميع الصليبيين ووضعت الشروط الكفيلة بحماية املاك الراحلين وعوائلهم طيل فترة غيابهم. ومنعت النساء من المساهمة في الحرب الا اذا كـــن في صحبة ازواجهن. اما القسس والرهبان فقد تطلبت مشاركتهم موافقة رؤسائهم.

الدوافع الأخرى

ان ما ذكر حتى الان يوضح دور العامل الديني في قيام الحروب الصليبية وفي الوقت الذى لا يمكن نكران دور العاطفة الدينية خاصة ونحن نبحث في تاريخ العصور الوسطى ، عصور العقيدة والايمان وعصور القسس والاساقفة والرهبان. الا ان هذا العامل وحده لا يكفي لتفسير هذه الحروب المتطاولة. والحقيقة هناك عوامل مهمة اخرى الى جانب ذلك العامل الديني . فالعاطفة الدينية كثيرا ما استغلت لاثارة حماس الناس العاديين. وكثيرا ما اتخذت المظاهر الدينية للتستر على اطماع لا تمت الى الدين بصلة. ومع ان الصبغة الدينية كانت بارزة في الحملة الصليبية الأولى ، الا ان تلك الصبغة صارت اقل وضوحا في الحملات الصليبية التالية ففي الحملة الصليبية الرابعة على سبيل المثال تناس الصليبيون الارض المقدسة التي جاءوا في الاصل لتخليصها من ايدي

المسلمين ، وتوجهوا الى القسطنطينية المسيحية ليحتلوها ولينتزعوها من يد اهلها البيزنطيين الذين قامت الحروب الصليبية في الاساس لنجدتهم ولدفع خطر المسلمين عنهم.

وحتى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى ذات الصبغة الدينية الأكثر وضوحا ، فأن تلك الحملة تمخضت عن تحقيق مآرب واطماع فئتين من فئات المجتمع هما الاقطاعيون الفرنسيون والتجار الايطاليون ولم يكن الدين بالنسبة لكلتا الفئتين الا وسيلة لتحقيق اغراض تجارية واقتصادية وسياسية. لقد حصل الاقطاعيون الفرنسيون على اراضي جديدة اقاموا لهم فيها ممالك ودويلات في الشرق. وحقق التجار الايطاليون مكاسب وارباح تجارية جسيمة من جراء مساهمتهم في الحرب.

وهكذا كانت الرغبة في الحصول على اقطاعات جديدة لدى النبلاء والامراء الأوربيين ، والرغبة في الهيمنة على تجارة الشرق وموانيه لدى التجار الايطاليين من الدوافع الرئيسية لقيام الحروب الصليبية ولاستمرارها تلك المدة الطويلة.

وبالاضافة الى ما ذكر فقد كانت هناك اسباب ودوافع اخرى للحروب الصليبية منها الضائقة الاقتصادية التي بها الاوربيون ، اذ ان لاقتصاد الريفي البسيط الذى كان سائدا في اوربا ، لم يعد باستطاعته مواجهة ازدياد السكان هذه الظاهرة التي اصبحت واضحة المعالم خلال القرن الحادي عشر وقيل ان البابا اريان الثاني خاطب المجتمعين في كلير مونت قائلا من الصعب عليكم ان تعيلوا السكان في هذه البلاد وهذا ما يدفعكم لشن هذه الحروب الكثيرة فيما بينكم.

ثم ان الحروب الصليبية جاءت لتلبية حاجة ملحة هي اشباع روح المغامرة عند بعض الاوربيين ونخص بالذكر منهم النورمان والنبلاء الفرنسيين فبعد ان اتم اولئك النورمان – فتوحاتهم في اوربا ، وبعد ان منع ملوك فرنسا الاقوياء النبلاء الفرنسيين من شن الحروب على بعضهم البعض. راى اولئك وهؤلاء في الحروب الصليبية متنفسا واشباعا لروح المغامرة والشهرة والمكاسب الاقتصادية والسياسية. والخلاصة ان الحروب – الصليبية كانت حروبا استعمارية قامت بها اوربا ضد الوطن العربي الاسلامي واضفت عليها طابعا دينيا في الظاهر لخداع جماهير الشعب واستثارة حماستهم.

<u>اثر الحروب الصليبية في اوربا</u>

للحروب الصليبية نتائج هامة على اوربا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فمن الناحية الاقتصادية عملت الحروب الصليبية على تنشيط التجارة الاوربية مع الشرف واستفادت المدن التجارية الايطالية اكثر من سواها من تلك الحروب واستمرت تجارة تلك المدن مع الشرق حتى بعد زوال الدويلات الصليبية. فقد قام

الايطاليون بنقل البضائع الشرقية الى اوربا مثل التوابل والسكر والانسجة الشرقية الثمينة والعطور وبمرور الزمن اعتاد الاوربيون هذه الحاجيات وصارت سلعا اساسية بعد ان كانت ثانوية. فحرصوا على الحصول عليها. وبدأوا في البحث عن الطرق التي تؤديهم الى الشرق للوصول اليها. وهذه هي بداية حركة الاستكشافات الجغرافية التي احدثت من غير شك ثورة في التاريخ البشرى كله. ويرى البعض ان اكتشاف اواسط اسيا في القرن الثالث عشر على يد الأوربيين يضاهي في اهميته اكتشاف امريكا في اواخر القرن الخامس عشر.

لقد انهت الحروب الصليبية عزلة الاوربيون ووسع الاختلاط بالشعوب العربية – والاسلامية افق معرفتهم. وبدأ اهتمام الاوربيين بالشعوب العربية والشرقية

وبثقافاتها منذ الحروب الصليبية. وقد بذلت المحاولات الاولى لدراسة اللغات الشرقية وفي مقدمتها اللغة العربية وتجمعت نتيجة للحروب الصليبية معلومات كثيرة عن الشرق فوضعت كثير من كتب الارشاد للأرض المقدسة خلال الحروب الصليبية كما الفت الكتب الخاصة بتاريخ تلك الحروب وقد يكون اثر الحروب الصليبية محدودا من النواحي الثقافية وذلك لان القائمين بها والوافدين الى الشرق بموجبها لم يكونوا على جانب من الثقافة والعلم وكان اهتمامهم بالمعرفة ضيقا ومحدودا.

ومن الناحية الاجتماعية فان ازدهار التجارة ادى الى تطور الفئات البرجوازية وازدياد نفوذها على حساب الطبقات الارستقراطية في اغلب الاحيان . ولهذه اهمية خاصة ودور كبير في انحلال نظام الاقطاع وساندت الفئات البرجوازية الملكيات المطلقة في صراعها ضد الاقطاع والارستقراطية.

وازدادت اهمية الكنيسة وازداد نفوذ البابوات في بداية الحروب الصليبية وعلى اثر النجاح الذى حققته تلك الحروب في مراحلها الاولى. ولكن تعتمها وفشلها وتحول الصليبيين عن اهداف الحرب الاساسية كما هي الحال في الحملة الرابعة واستغلال البابوات للحرب المقدسة لأغراضهم الخاصة حط من منزلة الكنيسة وقلل من هيبتها.
ولعل النواحي العسكرية هي ابرز النواحي التي ترك المسلمون اثرهم فيها. فقد تعلم الأوربيون من المسلمين استخدام الاسلحة الخفيفة والاعتماد على المشاة، واقتبسوا منهم طرقا جديدة لبناء القلاع والتحصينات.
ان اتصال اوربا بالبلاد العربية والاسلامية طوال الحروب الصليبية كان من اهم عوامل نهضتها وتقدمها. فقد بهرت الحضارة العربية الاسلامية المتقدمة عقولهم – واستحوذت على انفسهم ، وفتحت آفاق تفكيرهم.
وقد تعلم الاوربيون من العرب . والمسلمين صناعات كثيرة ، وطرقا جديدة في الزراعة والري والملاحة والبحرية ، وتنظيم المدن وادارتها ونظافة شوارعها وحماماتها ومرافقها العامة ، ان اتصال الأوربيين – المباشر بالحضارة العربية الاسلامية كان من اهم عوامل انطلاق الحضارة الاوربية الحديثة في مختلف مجالاتها .